تجديد الفكر الديني بين الأصالة والمعاصرة

- ضرورة حتمية -

إعداد الدكتور:

عادل الصاوي أبو زيد

مدرس الدعوة والثقافية الإسلامية

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

من ٢١٣٣ إلى ٢٢٦٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

سورة النمل من الآية ١٩

المقدِّمة

الحمد لله رب العالمين, أحمده –سبحانه– على سابغ نعمه, ووافر فضله, حمد معترف بكرمه, عاجز عن الوفاء بشكره, والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ أرشدَ الناسَ إلى الإسلام وبلَّغ دعوة بربه على التمام, وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فإنَّه من منطلق عالميَّة الدعوة الإسلاميَّة وصلاحيتها لكل عَصْر ومَصْر نجد أن النبي ﷺ أول مَن تحدَّث عن قضيَّة التجديد, وهذا يعني أن التجديد سنة من سنن الله في الكون, عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله يَبْعَثُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مائةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)[1].

إن هذا التجديد يقع على رأس كل مائة سنة, بما يُشير إلى ما تحمل هذه السنوات المائة من متغيِّرات وأحداث, ومن أفكار ورؤى, ومن تقاليد وعادات, وفي كل هذا تحتاج الأمة إلى الوقوف على رأي الدين وحكمه فيها, وإن القرون الأخيرة قد حفلت بمتغيِّرات هائلة بل مذهلة كان من بينها أمور فرضت على أهل العلم والدعوة أن يُبدوا رأي الإسلام فيها, ولا يغيب عنَّا قول

---

(1) أخرجه الإمام أبو داود رقم (٤٢٩١) كتاب الملاحم باب ما يُذكر في قرن المائة (جـ٤ صـ١٠٩) ط دار الباز للنشر والتوزيع, وأخرجه الإمام الحاكم في مستدركه, كتاب الفقه والملاحم (جـ٤ صـ٥٢٢) ط دار الفكر طـ٣, والإمام السيوطي في رسالته المخطوطة: (التنبئة فيمن يبعث الله على رأس كل مائة, صـ٢), والإمام السخاوي في (المقاصد الحسنة) رقم (٢٣٨) صـ١٢٢ طـ دار الكتب العلمية, وذكره الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٥٩٩) (جـ٢ صـ١٤٨).

النبي ﷺ:" لِهَذِهِ الأُمَّةِ" وهذا مما اختصَّت به الأمة الإسلامية, وما ذلك إلا لأن دعوتها دعوة "عالميَّة" فهي خاتمة الدعوات, ومن ثمَّ فلابد أن تُواكب كل عَصْر ومَصْر.

إنه في إطار بناء وعي إسلامي وحضاري قوامه العقل والوحي يكون التجديد المنشود للفكر الديني, والتجديد ليس تغييراً في حقائق الدين القطعية الثبوت, ذات العراقة والأصالة, لكنَّه تجديد للفكر والفهم, وتوضيح للصورة الصحيحة لمبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه, لما ران عليها من بعض غبار, أعيانا الركود والجمود عن كشف النقاب عنه, فهو إعادة لنضارته ورونقه وبهائه, وإحياء ما اندرس من سُنَنه ومعالمه, وهذا ما نفهمه من قول النبي ﷺ:"دِينَهَا" ولم يقل مثلاً: دين الله تعالى, إذن فالتجديد مُنْصَبٌ على دين الأمة وفكرها دون ثوابتها وأصولها.

ولا يهمنا على يد مَنْ يكون هذا التجديد سواء كان فرداً أو جماعة على حد اختلاف رأي العلماء في لفظة "مَنْ" حيث أنه يُطلق لفظاً على الفرد والجماعة, والمهم أنه سيكون واقعاً ملموساً لا حُلماً منشوداً, ولا يهمني مَن يكون حاملاً لراية التجديد في ميدان المعركة "فالأمر جد خطير" بقدر أن أكون جنديَّاً في ميدان التحرير والتنوير.

ولا يغيب عنا لفظة الفعل "يَبْعَثُ" يعني: يُقيِّض, بصيغته الزمنية "المضارع" ومدلوله اللفظي, "قادم لا محالة" فالقضيَّة حالاً أو مستقبلاً لا مفرَّ منها, عند حدِّ قول الإمام علي -كرم الله وجهه-: "لن تخلو الأرض مِن قائم لله بحجته", فهم أصحاب فكرٍ راق ونظرة ثاقبة, تبقى أفكارهم آثاراً تُحيي ذكراهم, ليُكتب ما قدَّموا وآثارهم في سجل الحياة النابض وكتابها الخالد, وهذا ما يُفيده الفعل "يُجَدِّد" بلفظه ومدلوله, فقد جاء في اللسان: "تَجَدَّد الشيء,

أي: صار جديداً, وأجدَّه وجَدَّده, واسْتَجَدَّه, أي: صيَّره جَدِيدَاً"[١], "والجَدِيدَان: الليل والنَّهار, وذلك لأنَّهما لا يبليان أبداً"[٢].

وإذا كان الناظرون في العصر الحاضر تفاوتت وجهات نظرهم إلى التراث الإسلامي من حيث تقديسه أو تقديره, بين قوم يرون التراث شيئاً مُقدَّساً لا يتأتى المساس به, ويبغون بقاء التراث على حاله "وهو رأي جمهور المسلمين من العامة وغير المتخصصين" لماذا؟ لأنه يروي غُلَّة ظمئهم, ويُناسب مستواهم الفكري, ويكفيهم مُؤنة البحث والتنقيب, وبين قوم يرون قطع الصلة بالتراث بالكليَّة "وهورأي الغرب وأعوانه في الشرق من العلمانيين وغيرهم"[٣], وهو رأي لم يلق ترحيباً أو تأييداً, لماذا؟ لأن ربط التخلف بالدين أمر يرفضه المستنيرون من علماء المسلمين, وهم له بالمرصاد[٤].

والحقيقة أني لست مع هؤلاء أو أُولاء, ولكني مع دعاة الوسطية الذين لا يقبلونه بالكلية أو يرفضونه بها, بل يرون التراث رصيداً لا يجوز إضاعته, وفي الوقت ذاته هو فكر بشري يُصيب ويُخطئ, فكل يُؤخذ منه ويُرد عليه إلا

---

(١) لسان العرب لابن منظور (جـ٣ صـ١١١) مادة (جدَّد).

(٢) تاج العروس (جـ٧ صـ٤٧٩) مادة (جدَّد).

(٣) العلمانية هي: اللادينية بالمعنى الحرفي للكلمة, أي: ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد, في حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الإهتمام بالآخرة إلى الإهتمام بالدنيا وحدها, فهي اتجاه في الحياة يقوم على مبدأ أن الدين لا يدخل في الحكومة, وصارت في الكتب الإسلامية المعاصرة تعني: فصل الدين عن الدولة. العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية د سفر بن عبد الرحمن الحوالي صـ٢١-٢٤ ط: مكتب الطيب ط١ سـ١٩٩٨.

(٤) لمزيد من الإستفادة يُنظر كتاب "التراث الإسلامي بين التقدير والتقديس" د بكر زكي عوض "سلسلة القضايا الإسلامية" ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد (١٢٥) القاهرة ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م.

رسول الله ﷺ فلا عصمة لكاتبيه, ولا قدسية لأقلامهم, ولابد من كشف النقاب عما كتبه الأقدمون بالبحث والنظر من المنوطين بهذه القضايا تحت مظلَّة الأزهر الشريف جامعاً وجامعة لضمان المنهج والغاية.

ولقد أردت المساهمة قدر الإستطاعة في تجديد الفكر الديني ورفعته من كلِّ ما عَلَقَ به مِن أدران للوصول إلى الخطاب المنشود, فجاهدت نفسي مُحاولاً –قدر توفيق الله لي– إلتقاط فكرة هذا البحث لعلي أكون واحداً من خَدم الإسلام ورجالاته, ولم أكن أول مَن فكَّر في هذا, لكني واحد من الذين أرهقهم ضعف الخطاب الديني المُوجَّه "من حيث الفهم والعرض والتوجيه لا من حيث ذات الخطاب"[١] –إلا ممن رحم ربي– وهم أقلَّة في عصرنا, غير أني في عرض هذه القضيَّة وتحليلها سأتحدَّث بلفظ العموم من باب التغليب.

وفي الوقت ذاته لست حاملاً لسلاح الهجوم الشرس على العاملين بتوجيه الخطاب الديني, ولكني أسوق بحثي هذا للإنتصار عليه, من خلال توعية بني جِلدَتي من الدعاة والأئمة –العاملين في حقل الدعوة– بثقل الأمانة المنوطين بها, من منطلق قوله تعالى: (إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)[٢], فأردت مُساعدتهم ووقوفهم على بعض النِّقاط التي أراها –من وجهة نظري– تُساعد في حملة التجديد والنهوض, وتقديم فكر ديني يُواكب تحدِّيات العصر وينتصر عليها.

ولن أدَّعي العصمة من الخطأ بل أقول مقالة سيدنا عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه–: "فإن يك صواباً فمن الله, وإن يك خطأً فمني ومن

(١) وهذا هو سر تسميتي لهذا البحث بـ" تجديد الفكر الديني" دون "تجديد الخطاب الديني" فشتان بينهما.

(٢) سورة المزمل الآية ٥.

الشيطان, والله -عز وجل- ورسوله بريئان"[١], والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل, ولقد ركَّزت عبر الصفحات القادمة على أمرين أساسيين أراهما -من وجهة نظري- أُولى الخطوات على الطريق الصحيح:

الأمر الأول: السمات التي يجب مراعاتها في تجديد الفكر الديني.

الأمر الثاني: أثر أساليب الدعوة الإسلامية في تجديد الفكر الديني.

وقد اقتضت طبيعة العمل في هذا البحث تقسيمه إلى فصلين, تسبقهما مقدمة وتمهيد, وزيَّلتها بخاتمة, يتبعها ثبت المراجع والمصادر, ثم فهرست الموضوعات, ومن هذا المنطلق جاء الفصل الأول تحت عنوان:

(السمات التي يجب مراعاتها في تجديد الفكر الديني):

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: مراعاة سمة ربانيَّة المصدر والغاية في تجديد الفكر الديني.

المبحث الثاني: مراعاة سمة العالمية في تجديد الفكر الديني.

المبحث الثالث: مراعاة سمة الإنسانية في تجديد الفكر الديني.

المبحث الرابع: مراعاة سمة التَّدرج في تجديد الفكر الديني.

المبحث الخامس: مراعاة سمة الواقعية في تجديد الفكر الديني.

المبحث السادس: مراعاة سمة التيسير ورفع الحرج في تجديد الفكر الديني.

المبحث السابع: مراعاة سمة الوضوح في تجديد الفكر الديني.

المبحث الثامن: مراعاة سمة الإيجابية في تجديد الفكر الديني.

المبحث التاسع: مراعاة سمة الجمع بين الأصالة والمعاصرة في تجديد الفكر الديني.

المبحث العاشر: مراعاة سمة الوسطية في تجديد الفكر الديني.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج٦ صـ١٣٧ حديث رقم (٤٢٧٦) ط دار الفكر العربي, بيروت المكتب الإسلامي.

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان:

(أثر أساليب الدعوة في تجديد الفكر الديني)

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: أثر أسلوب الحكمة في تجديد الفكر الديني.

المبحث الثاني: أثر أسلوب الموعظة الحسنة في تجديد الفكر الديني.

المبحث الثالث: أثر أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن في تجديد الفكر الديني.

المبحث الرابع: أثر أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تجديد الفكر الديني.

المبحث الخامس: أثر أسلوب القدوة الحسنة في تجديد الفكر الديني.

الخاتمة, وتشتمل على:

أولاً: أهم النتائج والتوصيات.

ثانياً: ثبت المصادر والمراجع.

ثالثاً: فهرست الموضوعات.

التمهيد

لقد أُبتليت الأمة الإسلاميَّة في عصرنا بتصدير غير المؤهلين للعمل بالدعوة والفتيا, وإن ما أحدثوه من من فوضى وتخبط جعل هناك حَيرة لدى عامة المسلمين, بين جه أبنائه وعجز علمائه, نتيجة ما أخرجه بعض من أُناس غير دارسين للعلم الشرعي, أخذوا العلم من غير مصدره الأصيل فضَلوا وأضَلوا, الأمر الذي افترضه علينا واقع الأمة الإسلامية المرير, مما أوجب علينا الإهتمام بالتجديد في التراث الإسلامي –الفقهي وغيره– لتقديم فكر ديني جديد يُواكب العصر, ويُساير الواقع, لماذا؟ من أجل الحفاظ على الهوية الحضارية للمسلمين, ولتفاعل المسلمين مع واقعهم المعاصر للقيام بواجب الاستخلاف في الأرض, والإرتقاء بالإنسان دون إحداث فتن.

ولن يتم هذا دون تجديد حقيقي للفكر الديني الموجَّه على المستوى الفردي والجماعي, والمستوى الداخلي والدولي, فلابد من البعد عن الخطاب الديني الإنشائي الذي يضر أكثر مما ينفع, ولابد من تقديم فكر ديني له سماته وأساليبه, والدعوة إلى التجديد لا تعني التَّخلي عن الدين, ولا الخروج على أحكامه المعلومة من الدين بالضرورة, وإنَّما تعني إعادة النظر في الموروث من تراث الأقدمين, ذلك الموروث البشري من ناحية, ومن ناحية أُخرى البحث عن الحلول الإسلامية لكل ما جدَّ ويجدُّ مُستقبلاً من أمور جديدة, تحتاج إلى اجتهادات جديدة, ومرونة فكرية, وسعة في الأُفق, وفهم صحيح للواقع.

وإقرار مبدأ التجديد يعني رفض التقليد الأعمى, ويعني ضرورة إعمال العقل الإنساني, كما أنه رفض صريح للدعوة الإسلامية بإغلاق الباب الذي فتحه الرسول ﷺ وليس لأحد الوصاية المحضة في غلقه, ذلك أن إعمال العقل

بالفكر والاجتهاد هو مبدأ الحركة في الإسلام[١]، أما الجمود والركود الذي ألفه الناس في العديد من قضايا الدعوة الإسلامية فقد أصاب الدعوة في مقتل, فمثلاً ألف الناس الحديث عن المناسبات حتى صارت كالبدهيات حال التناول, وأصبح الطرح الجديد لتناول مثل هذه القضايا حِبراً على ورق, وعلى الرغم من صُدور العديد من الكتب أو الكتيِّبات التي تشتمل على "تجديد الخطاب الديني وتصحيح المفاهيم" من المؤسسات الدعوية المسئولة في الدولة إلا أن التجديد المنشود ما يزال في غيابة الجُبِّ, لماذا؟ لأن التجديد في الطرح يعني إجهاد العقل في التفكير وحثِّه على ترك الخمول والكسل وهذا ما لا يألفه كثيرون[٢].

فلابد من فكر ديني جديد له سماته الخاصَّة التي يستمدُّها من مصدره الأصيل, وهذا ليس دور المؤسسات الدينية وحدها, بل لابد من إشراك جميع مؤسسات الدولة: العلمية والثقافية والإجتماعية..الخ, وفوق هذا كله اهتمام سياسات البلاد الإسلامية بأحوال الدعوة الإسلامية, فلا مانع من اتِّخاذ القيادات السياسية رجال علم ودين في وزارتهم يرشدونهم إلى أفضل السُبُل في هذا, من أجل إخراج فكر ديني يتناسب مع ظروف العصر وحجم التحديات بما يُحافظ على الثوابت الشرعية والأخلاقية للمجتمع, ويضع حلولاً واضحة ومناسبة تتسم بسمات معيَّنة لكل ما يُواجه المجتمع من مشكلات أو تحدِّيات, بالإضافة إلى تكثيف الندوات والملتقيات الفكرية للشباب حتى يكون لديهم وعي

([١]) هذا هو وصف المفكِّر الإسلامي د محمد إقبال -رحمه الله- المتوفى عام ١٩٣٨م في كتابه: تجديد التفكير الديني في الإسلام, ترجمة عباس محمود صـ١٤٤ وما بعدها ط القاهرة ١٩٦٨م.

([٢]) لمزيد من الاستفادة يُنظر بحث "التجديد من خلال المناسبات" د بكر زكي عوض صـ٣٠١ وما بعدها, بتصرف, ط وزارة الأوقاف في كتابها "دليل الإمام إلى تجديد الخطاب الديني" القاهرة سنة ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

بما يدور في المجتمع, وهو مُوافق لطبيعة الإنسان التي بُنيت على الحركة, وقديماً قال آباؤنا: "الحركة: بركة", وبفهمهم: هي زيادة في الدَّخل والرزق, وفي لغة الدعوة: هي إضافة عقل جديد إلى عقل الداعية يرصد..ويُحلل..ويُوجِّه. بعد نيل العلم الصحيح من منهله الوسطي المعتدل.

ناهيك عن الدور المنوط به الأزهر الشريف, ووزارة الأوقاف, باعتبارهما نافذتنا المطل عليها العالم الداخلي والخارجي, وهما مؤسساتان حبا الله بهما مصرنا الغالية, وهما موضع تقدير واحترام من الجميع, فالأزهر الشريف هو الهيئة المسئولة عن تنقية كتب التراث بشكل سهل ومُبسَّط, وعليه أن يُراعي هذا في جميع كتبه ومناهجه المقرَّرة على جميع المراحل التعليمية المختلفة, وخاصَّة النَّشء منهم, بل لابد من إعادة صياغة مناهج التعليم بشكل عام على أيد مُتخصِّصين, حتى لا نفصل الماضي عن الحاضر, وهذا لا يُقلل من شأن الأقدمين, فالماضي الذي لا يترحم بالحاضر طلل رحل عنه أهله, والحاضر الذي لا يتعطَّر بالماضي مريض شقَّ عليه عدم وفاء رفاقه.

كما أن تجديد الفكر الديني هو أيضاً دور وزارة الأوقاف باعتبارها الهيئة المُوجِّه لهذا للخطاب الديني بما تملك من وسائل مهمة كوسيلة خُطبة الجمعة مثلاً, والغاية من القضيَّة أن هذه التواليف كُتبت بغير لغة العصر ولجيل غير جيلنا والأجيال المقبلة, وإيماناً بمنهج الإسلام الصالح لكل عَصْر ومَصْر, فلابد من تقديم فكر ديني يُناسب اللحظة مُحتفظاً لنفسه بحق الأصالة والعراقة.

ومما يجعل قضيَّة تنقية التراث ليست أمراً مستعصياً, خاصَّة أنها أصبحت قضية الساعة الآن, أن بعضاً من كبار علماء الأزهر الشريف أكَّدوا أن التراث الإسلامي قابل للتنقية والتجديد, وليس مذهب الإمام الشافعي – رحمه الله– بين القديم والجديد منَّا ببعيد, حتى أن السادة الشافعية أخذوا

يُطلقون على ما أبداه الشافعي من آراء تخص العديد من القضايا وهو في بغداد: "القول القديم" وما أبداه من أحكام وقضايا بعد دخوله مصر "أرض الكنابة" -حفظها الله-: "القول الجديد", بل إن العلامة ابن القيم -رحمه الله- عقد في كتابه "إعلام الموقعين" فصلاً كاملاً تحت مُسمَّى "فصل في تغيير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيَّات والعوائد"(١).

ومن منطلق الحيادية المحضة, والمصداقية مع النفس فإن العديد من القضايا التي تُعاني منها الأمة الإسلامية اليوم سواء قضايا الإرهاب أو التكفير أو التطرف الفكري والانحراف بكل مستوياتهما تلعب كتب التراث فيها دوراً ليس بسيطاً, لما يظهر فيها من بعض آراء ظاهرها الغُلو, وأنها لا تتفق ومعطيات العَصْر الآن, حتى وإن كانت شُذوذاً عن أحكام الشرع افترضها الواقع, إلا أن أصحاب الفكر المتطرف اتَّخذوها مُتَّكئاً رفعوا من خلاله سيف الدم ودرع الهدم, فقتلوا وروَّعوا وخرَّبوا, وكل ذلك يدَّعوه تحت مظلَّة الإسلام "جيش الدولة الإسلامية", ناهيك عن الجماعات الإرهابية المتطرفة مثل "داعش" و "بوكو حرام" وغيرهما, والإسلام والأزهر -جامعاً وجامعة- منهم بريئان.

وعليه: فنحن أحوج ما نكون إلى تجديد فكر ديني شامل يتآخى فيه العقل والنقل, ويتفاعل مع المُتطلبات المجتمعية والدولية, دون المساس بالثوابت والمُسلَّمَات, وإهدار ما بذله الأقدمون عبر القرون, تلك الثروة الفكريَّة المعرفيَّة, والثقافيَّة والعلمية التي لا يُمكن تجاهلها أبداً بأي حال من الأحوال, مُحذِّراً من مجرَّد إعادة طلاء لمادة قديمة, أو ترميم لعالمٍ أصابته عثرة, وإلا فشهاب الدين أزرط من أخيه.

بيد أن هذا الأمر يتطلَّب وجود دعاة لديهم سعة في الأفق, ورصيد من الثقافة العامة, ذلك أن لهذه الثقافة أثرها الفعَّال في قضيَّة التجديد, ولا يخفى

---

(١) إعلام الموقعين للإمام بن القيم جـ٣ صـ٣ ط بيروت سنة ١٩٧٣م.

علينا أن الركود والجمود الذي نراه من الدعاة على الساحة في عصرنا هو نتيجة قلَّة الإطِّلاع والوقوف بثقافتهم عند حدٍّ مُعيَّن, في حين تظهر يوماً بعد يوم على الساحة قضيَّة جديدة للطرح والنَّظر, لتبقى الثقافة الواعية الشاملة هي العنصر الأساسي في التجديد.

من هذا المنطلق فإن التراث الإسلامي يتميَّز بعدة خصائص[١]:

أولها: قابلية هذا التراث للتجديد, ذلك أنه تراث لا يعرف الجمود والركود, أو حتى الوقوف عند حدٍّ, فلا يعرف "محلَّك سِرْ", ولا يقتصر قبوله للأفكار على زمن مُعيَّن, فخطابه خطاب عامٌّ لكل مخاطَب به, وعموم خطابه أعطاه صلاحيته لكل عَصْر ومَصْر, ونحن مُطالبون شرعاً بإعمال العقل والفكر, "فالتفكير فريضة إسلامية"[٢], وإلا فكيف يتسنى لنا أن نتفاعل مع آيات القرآن الكريم التي جاءت تُوجِّه خطابها بمشتقَّات مختلفة تُحث على التَّدبر أو التَّفكر سواء لأُولي الألباب أو لأُولي النُّهى..., ثمَّ صوَّرت الجمود والركود بقلوب عليها أقفالها, قال تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ)[٣], وليس التجديد نقيضاً لاكتمال الدين وثباته, بل هو السبيل لامتداد تأثيرات الدين الكامل وثوابته وأصوله إلى الميادين الجديدة والقضايا المستحدثة, من أجل ضمان البقاء على الأصول والثوابت صالحة لكل عصْر ومَصْر.

---

(١) لمزيد من الاستفادة يُنظر بحث "التجديد من خلال خطبة الجمعة" د بكر زكي عوض صـ ٢٨٦ وما بعدها ط وزارة الأوقاف في كتابها "دليل الإمام إلى تجديد الخطاب الديني" القاهرة سنة ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

(٢) لمزيد من الاستفادة يُنظر كتاب "التفكير فريضة إسلامية" للأستاذ عباس محمود العقاد ط مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٨م.

(٣) سورة محمد الآية ٢٤.

ثانياً: إنه مما يُميِّز التراث الإسلامي قُبوله للتنقية, والحقيقة أن بعضاً من الأقدمين من أهل العلم دفعتهم همَّتُهم العالية بتسجيل كل ما يقع تحت أيديهم ليبقى في سجل الحياة الخالد, فكانوا أشبه "بحاطب الليل" الذي يجمع الغثَّ والسَّمين, لا يدري ما تحويه حزمته حبلٌ أم ثُعبانٌ, وإن شئت فكل ما أشبه الكثير منهم بمَن سقطت منه البُقوليَّات على الأرض فعلق بها ترابها فجمعها والحصى بها معلَّقة, أو كثوب نظيف علقت به بعض الشوائب, وفي كلا الأمرين نقاء وشفافية, فلا يضر الأول تنقية الحصى منه ليبقى الانتفاع بالباقي أمراً مُستساغاً, ولا يضر الثاني غسله لمحو ما علق به من شوائب.

ثالثاً: ناهيك عن قبول التراث الإسلامي بما يحمل من خصائص تُرشحه للعالمية, وهو أمر أثبت الواقع نجاحه فعلاً, فبين الحين والآخر نرى أو نسمع عن كتاب أو بعض كُتب من تراثنا الإسلامي تُرجِم بلغة أخرى, فكان بداية لعهد جديد في مجاله بما يحمل من مشاعل النور, كالقمر المضيئ والشمس المشرقة, فقد تمَّ الانتفاع بما كتبه أطباؤنا وفلاسفتنا ومفكِّرونا في الفكر الغربي, ولا يُمكن لأحد أن يُنكِر ترجمة الغرب لكتب ابن النفيس وابن سينا وابن الهيثم والرازي..وغيرهم, مع انتفاعه بها لتبقى له الصدارة في مختلف المجالات وهو ما يُؤكد قبول تراثنا الإسلامي للعالمية.

الفصل الأول

(السمات التي يجب مراعاتها في تجديد الفكر الديني):

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: مراعاة سمة ربانيَّة المصدر والغاية في تجديد الفكر الديني.

المبحث الثاني: مراعاة سمة العالمية في تجديد الفكر الديني.

المبحث الثالث: مراعاة سمة الإنسانية في تجديد الفكر الديني.

المبحث الرابع: مراعاة سمة التَّدرج في تجديد الفكر الديني.

المبحث الخامس: مراعاة سمة الواقعية في تجديد الفكر الديني.

المبحث السادس: مراعاة سمة التيسير ورفع الحرج في تجديد الفكر الديني.

المبحث السابع: مراعاة سمة الوضوح في تجديد الفكر الديني.

المبحث الثامن: مراعاة سمة الإيجابية في تجديد الفكر الديني.

المبحث التاسع: مراعاة سمة الجمع بين الأصالة والمعاصرة في تجديد الفكر الديني.

المبحث العاشر: مراعاة سمة الوسطية في تجديد الفكر الديني.

المبحث الأول

مراعاة سمة ربانيَّة المصدر والغاية في تجديد الفكر الديني

إن من خصائص الشريعة الإسلامية أنها إلهية المنبع والوجهة والغاية[1], وتتجلى هذه الميزة في أن غاية دعوة الله تعالى الحقة هي حسن الصلة بالله تعالى, والحصول على مرضاته جلَّ وعلا, ومن ثَمَّ تظهر هذه الربانية في جوانب حياة الإنسان المختلفة: (قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)[2].

وتعد الربانية: هي أولى خصائص التصور الإسلامي, ومصدر هذه الخصائص كذلك, فهو تصور اعتقادي موحى به من الله سبحانه ومحصور في هذا المصدر لا يستمد من غيره, وذلك تمييزاً له من التصورات الفلسفية التي ينشئها الفكر البشرى حول الحقيقة الإلهية, أو الحقيقة الكونية, أو الحقيقة الإنسانية والارتباطات القائمة بين هذه الحقائق وتميزاً له كذلك من المعتقدات الوثنية, التي تنشئها المشاعر والأخيلة, والأوهام والتصورات البشرية[3].

---

(1) يُنظر في هذا: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية د عبد الكريم زيدان صـ٣٩ وما بعدها ط بغداد ١٩٨١م, والخصائص العامة للإسلام د يوسف القرضاوى صـ٧ ط. مكينة وهبة ط الثانية ١٤٠١هـ- ١٩٨١م, والمدخل إلى علم الدعوة د محمد أبو الفتح البيانوني صـ١٢٤ ط مؤسسة الرسالة, وأصول الدعوة د عبد الكريم زيدان صـ٤٦ ط مؤسسة الرسالة, ومنهج الدعوة في العهد المدني د حسن عبد الحميد حسن صـ١٢٠ ط بدون.

(2) سورة الأنعام من الآية ١٦٣.

(3) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشيخ سيد قطب صـ٤٧ ط دار الشروق ط العاشرة ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

ومن هذا المنطلق لابد أن يكون الفكر الديني ربانيًّا في مبدئه ومصدره ومنشئه, يعني: أن يستمد كل مبادئه وقيمه من تعاليم الدين الحنيف التي أمر الله تعالى بها, وأمر بنشرها بين الناس لإنقاذ البشرية من الظلمات إلى النور, عن طريق رسول ورسالة, وقد أدى الرسول ﷺ ما أمره ربه بتبليغه للبشرية على أكمل وجه, حتى أكمل الله تعالى به الدين, وأتم به النعمة, فما كتم رسول الله ﷺ من أمر الوحي شيئاً على الاطلاق.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: (مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ كَتَمَ شَيئاً مِما أَنزَلَ اللهُ عَليهِ فَقَد كَذَبَ, واللهُ يَقولُ: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ)[1][2], وفى رواية عَن مَسروقٍ قَالَ: (قُلتُ لعَائِشَـةَ- رضي اللهُ عنها: هَل رَأَى مُحَمدُ ﷺ رَبَّه؟ فَقَالَت: لَقَد قَفَّ شعري مِمَّا قُلت, أَينَ أَنتَ مِن ثَلاثٍ مَن حَدَّثكُنَّ فَقَد كَذَبَ, مَن حَدَّثَكَ أَنَّ مُحمَّداً رَأى رَبَّه فَقَد كَذَبَ, ثُمَّ قَرأَت: (لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَـٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَـٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ)[3], (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا)[4], وَمَن حَدَّثَكَ أَنَّه يعلَمُ مَا فِي غَدٍ فقَد كَذَبَ, ثم قَرأَت: (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ

([1]) سورة المائدة من الآية ٦٧.

([2]) أخرجه الإمام البخاري (٢/٦٥٤) رقم (٤٦١٢) كتاب تفسير القرآن- باب قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك).

([3]) سورة الأنعام الآية ١٠٣.

([4]) سورة الشورى من الآية ٥١.

ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[١], وَمَن حَدَّثَكَ أَنَّه كَتَمَ فَقَد كَذَبَ, ثم قرأت: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ)[٢] وَلكنَّه رَأَى جِبريلَ عَليه السَّلام فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْن)[٣].

في الحديثين توجيه يوحى إلى ربانية المنهج والشريعة وإلى إلهية المصدر والمنبع, وأن هذه الشريعة الإسلامية إنما هي مستسقاة من الوحى الإلهي, وأنه ﷺ ليس له من الأمر شيء إلا البلاغ, قال تعالى: (مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ)[٤], ولقد بلَّغ ﷺ ما أُمر بتبليغه دون أن يكتم من ذلك شيئاً, فظهر أن وظيفته هي مجرد النقل الدقيق, والتبليغ الأمين, وعدم خلط الوحى الذى يوحى إليه من عند الله بأي تفكير بشري, أو كما يسميه الحق تعالى بالهوى, أما هدي القلوب, وشرح الصدور فهو أمر خارج عن اختصاص الرسول ﷺ ومرده إلى الحق وحده في النهاية, فالرسول ﷺ لم يشارك في أصل هذا التصور الرباني, وإنما تلقاه تلقياً يهتدي به ويهدى, قال تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ)[٥], وقال تعالى: (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ)[٦].

وبذلك يستطيع الإنسان أن يقول وهو مطمئن: إن التصور الإسلامي هو التصور الاعتقادي الوحيد الباقي بأصله "الرباني" وحقيقته "الربانية" فالتصورات الاعتقادية السماوية التي جاءت بها الديانات قبله قد دخلها

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٤.

(٢) سورة المائدة من الآية ٦٧.

(٣) أخرجه الإمام البخاري رقم (٤٨٥٥) كتاب تفسير القرآن باب وقال مجاهد ذو مرَّة.

(٤) سورة المائدة من الآية ٩٩.

(٥) سورة القصص من الآية ٥٦.

(٦) سورة الأنعام من الآية ١٢٥.

التحريف- في صورة من الصور- وقد أضيفت إلى أصول الكتب المنزلة شروح وتصورات وتأويلات وزيادات, أو معلومات بشرية أدمجت في صلبها, فبدلت طبيعتها "الربانية" وبقى الإسلام وحده محفوظ الأصول لم يشب نبعه الأصيل كدر, ولم يلبس فيه الحق بالباطل"[١]، وصدق وعد الله في شأنه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ)[٢].

وحينما تتعمق في نفس الداعية هذه السمة من السمات, وهي: أن ينهج الداعية نهج الربانية في وجهته وغايته, وأن يؤمن بالألوهية مصدر شريعته وفكره الديني, فإنه حينئذ يجنى ثمرة دعوته, ويفوز بالقبول بين المدعويين, بل بالسعادة في الدارين, ومن أهم هذه الثمار:

معرفة الغاية من وجوده, والهدف من حياته, والشعور والإحساس بالذات وقيمة نفسه البشرية, وأن فراره إلى مَنْ بيده فراره, ولسان حاله في ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا ابراهيم- عليه السلام: (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ)[٣].

كما أن من شأن هذه الثمار أن تهديه إلى الفطرة السوية, السليمة التقية, تلك التي فطر الله الإنسان عليها, والتي تتطلب الإيمان بدعوة الحق سبحانه: (فَأَقِمْ

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشيخ سيد قطب ص٣ ط دار الشروق.

(٢) سورة الحجر الآية ٩.

(٣) سورة الشعراء الآيات من ٧٧- ٨٢.

وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ)[١].

ومن خلال هذه المعاني السابقة يظهر مدى تأثير هذه الخصيصة في تجديد الفكر الديني المنشود, مستخدماً إيَّاها في لدعوة إلى الله –تعالى– وإضافة إلى ما سبق: فإن هذه الخصية تسلم النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي, وتريح النفس الإنسانية, وتجنبها التضارب في الاتجاهات والغايات والنزعات والأهواء, مصداقا لقوله تعالى: (وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ)[٢].

هذا, ومن ثمرات الإيمان بهذه الربانية في المصدر والمنبع: أنها تضفى على المنهج صفة دينية إلهية, فتزيده قدسية واحتراماً لا تظفر بها أي دعوة بشرية زائفة أو شاردة عن وجهة الحق, قال تعالى: (الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[٣], ثم هي تحرره من عبودية الإنسان لأخيه الإنسان أو لغيره من سائر الطواغيت لتبقى عبودية الإنسان بل تبقى حياته بأكملها تهيمن عليها العبودية لله الأحد, مصداقاً لقوله تعالى: (قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ)[٤].

ويبقى لكل هذه المعاني السامية من منهج دعوة الإسلام وغاياتها أثرها الواضح على وجود الفكر ديني مصدره نص القرآن الكريم في آياته المحكمة فقط, يمعني الآيات الموجهة للاعتقاد أو العمل, دون توجيه فكر

---

(١) سورة الروم من الآية ٣٠.

(٢) سورة آل عمران من الآية ١٠١.

(٣) سورة هود الآية ١.

(٤) سورة الأنعام الآية: ١٦٢: ١٦٣.

ديني يقوم على التأويل أو البحث في الغيبيَّات, أو الاعتماد على مصدر غير الوحي والبيان النبوي الشريف, وهذا يعني صدق المرجعية في الخطاب الدعوي ومصدره, والبراءة والمنهجية والشفافية والنزاهة, وقوَّة الحجة والاستدلال, بعيداً عن الخرافة والدجل والرقائق التي لا سند لها, وتغييب العقل الذي كرَّمنا الله تعالى به وكلَّفنا من خلاله, فرداءة الفكر الديني أدى إلى توهم الناس أن هذا من الدين, حتى رأينا في مجتمعاتنا الإسلامية ظواهر مريبة, يعتمد الناس من خلالها على الدجل والشعوذة, وأصبحنا نرى أمة تسعى إلى التواكل, وتفهم الدين على أنه مجموعة من الخرافة أو الأدعية تُحقق المستحيل.

وما هذا كله إلا بسبب رداءة الفكر الديني, والبعد عن النيل من المصدرين الأساسيين, وجهل مَن يشتغلون به عن كيفيَّة التعامل معهما لتجديد الفكر الديني, مع الانطواء والإنكفاء على الموجود تحت أيديهم رغم ركاكته, مما أدى إلى وجود فكر سلبي لا يُسمن ولا يُغني من جوع, مع العلم أن توجيه الفكر الديني توجيهاً صحيحاً يُوجد أمة عاملة مُجدِّة لا جمود في فكرها ولا ركود, ذلك أن التَّقدُّمَ في مجال العمل -بوجه عام- مرتبط بالخبرة والكفاءة والسعي لا التدين, قال تعالى: (فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا)[١], وقال تعالى: (فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ)[٢].

فالنبي ﷺ استعان بعبد الله بن أريقط ليكون دليله في طريق هجرته, وهو لم يُسلم بعد, لماذا؟ لأنه كان خبيراً بالطرق مع أنه كان مشركاً في ذلك الوقت, فما وصلت إليه الأمة الإسلامية اليوم من فهم خاطء, وفكر عقيم, هو نتيجة هذا الفكر الديني الباهت الذي لا علم فيه ولا فقه, وما ظهرت الجماعات المتطرفة تحت المسمَّيات المختلفة إلا نتيجة هذا الفكر الرَّدئ, حتى صار

([١]) سورة الفرقان من الآية ٥٩.

([٢]) سورة الأنبياء من الآية ٧.

الشباب طعمة لينة, ولقمة مستساغة في أيدي أعداء الإسلام يُوجِّهوا عقولهم وأفكارهم كيف شاءوا, فأصبحوا سلاحاً على الأمة وهم من بني جلدتها, جِنساً أو لغة, يُهدِّدون أمنها واستقرارها نتيجة هذا الفكر العقيم والفهم المغلوط عن الإسلام ومنهجه, ولله در قول الشيخ الغزالي –رحمه الله–: "إن الإسلام قضية يتبنَّاها محام فاشل".

المبحث الثاني

مراعاة سمة العالمية في تجديد الفكر الديني

إن خصيصة العالمية للدعوة الإسلامية امتداد من الربانية, كيف ذلك؟ ذلك أن ربانية المنهج أضفت عليه عالميتها, فما دام المنهج رباني, فهو منهج صالح لكل زمان ومكان قائم إلى قيام الساعة, وبالتالي فشريعة الإسلام هي الشريعة الخاتمة لكل الشرائع, وما دام الأمر كذلك فهذا أكبر دليل على صلاحيتها لكل وقت وحين, وشاء الحق تبارك وتعالى لهذا المنهج أن يحكم وأن يسود وأن يظهر على كل الدعوات[١], قال تعالى: (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ)[٢], ومهما قامت هذه الدعوات الباطلة, تريد أن تطفئ نور هذا المنهج, فإن الحق سبحانه متم نوره ولو كره هؤلاء, قال تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ)[٣].

عن عطاء بن أبى رباح قال: زُرتُ عَائشَةَ -رضي الله عنها- مَعَ عُبيد بن عُمير الليثي, فَسَألنَاهَا عَنْ الهِجْرَةِ؟ فَقَالَتْ: (لاَ هِجْرَةَ اليَوْم كَانَ المُؤْمنُونَ يَفرُ أحَدُهُم بِدِينِهِ إلىَ اللهِ تَعَالى وَإلى رَسُولِهِ ﷺ مَخَافَةَ أَنْ يُفتَنَ عَليهِ, فَأَمَّا الآنَ فَقَد أظْهَرَ اللهُ الإسْلاَمَ واليومَ يعبدُ ربَّه حَيثُ شَاءَ, وَلَكن جِهَادُ وَنِيَّة)[٤],

---

(١) يُنظر في هذا: الدين العالمي ومنهاج الدعوة إليه لفضيلة الشيخ عطية صقر صـ١٣ ط الثالثة القاهرة ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م, الدعوة الإسلامية د أحمد غلوش صـ٣٧٧ ط مؤسسة الرسالة, ومنهج الدعوة في العهد المكي د حسن عبد الحميد حسن صـ١٥٨ ط بدون.

(٢) سورة التوبة الآية ٣٣.

(٣) سورة الصف الآية ٨.

(٤) أخرجه الإمام البخاري (٣/٩٥١) رقم (٣٩٠٠) كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

والحديث واضح الدلالة على ظهور الإسلام وعالميته, حتى وإن كانت هناك بعض الغيامات التي تحول دون ذلك الآن, فإنه لابد من يوم تنكشف فيه الحقائق, وتظهر عالمية الإسلام على الوجه الذى يليق بالدين الخاتم, مصداقا لقوله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)(١).

ولقد جاءت السنة النبوية توضح هذا وتبرهن عليه, فعن عائشة رضى الله عنها, قالت: (سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: لَا يَذهَبُ اللَّيلُ وَالنَّهارُ حتَّى تُعبد اللاتُ والعُزى, فَقلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إن كُنتُ لأظُنُّ حِينَ أنزَلَ اللهُ (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)(٢), أَنَّ ذلكَ تامَّاً, قالَ: إنَّه سَيكونُ مِن ذَلكَ مَا شَاءَ اللهُ, ثُمَّ يَبعَثُ اللهُ رِيحاً طيِّبةً فَتوفي كُل مَن فِي قلبهِ مثقال حَبْة خَرْدَل مِنْ إيمانٍ, فَيبقى مَن لا خَير فيه, فَيرجِعُونَ إلى دِين آبائِهم)(٣).

هكذا يوضح الهدى النبوي, أن عالمية الدين وظهوره على كل الأديان أمر لا ريب فيه, وأنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل, وما أصل ذلك إلا لأن هذا المنهج منهج عالمي, يُصلح الإنسان به حاله في كل زمان ومكان وكيف لا؟ وصاحب المنهج هو الذى خلقه ويعلم كينونته, قال تعالى: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)(٤), ولا مجال لمن يصف الإسلام بأنه دين

---

(١) سورة الأحزاب من الآية ٤٠.

(٢) سورة التوبة الآية ٣٣.

(٣) أخرجه الإمام مسلم (٤٨٦/٥) رقم (٢٩٠٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا..

(٤) سورة الملك الآية ١٤.

الرجعية والجمود وأنه لا يصلح لأن يكون ديناً عالمياً إذ أن هؤلاء ينظرون إلى الإسلام نظرة جائرة لا عدل فيها ولا إنصاف, وإنما هي قسمة ضيزى.

وتبقى عالمية الدين الإسلامي من أعظم الأمور وأجلها أثراً في وجود فكر ديني جديد يتَّسم بسمة العالمية, فهو فكر إسلامي عالمي للناس كافة, لا يقف عند مكان مُعيَّن, أو زمان مُعيَّن, كما لا يقف عند جنس معين أو لون, أو حتى طائفة بعينها دون أخرى, فلابد من فكر ديني عالمي على وفق ما يدور حوله الصراع القائم, وخاصة إذا كان في محيط يختلف في لغته عن لغة الدعاة إلى الله –تعالى, ويختلف في سائر عاداته وأحواله, ويبقى التخطيط لعالمية هذا الخطاب الديني أمراً ضرورياً يؤثر في الدعوة الإسلامية بالإيجاب, متى قام على خطة موضوعية واضحة المعالم والأهداف, مستوفياً كل الإمكانات, فلابد من دراسة شاملة لكل البلاد التي تُوجه إليها الدعوة الإسلامية من كل نواحيها, والتعامل الدعوي معها من هذا المنطلق, وهنا يتحقق مفهوم العالمية للخطاب الديني على الوجه الصحيح.

إن سمة العالمية للخطاب الديني ما هي إلا امتداد من الربانية, كيف ذلك؟ ذلك أن ربانية الخطاب الديني في منهجه أضفت عليه عالميتها, فما دام الخطاب والمنهج ربانيَّان, فهو منهج صالح لكل زمان ومكان قائم إلى قيام الساعة, وبالتالي فشريعة الإسلام هي الشريعة الخاتمة لكل الشرائع, وما دام الأمر كذلك فهذا أكبر دليل على صلاحيتها لكل وقت وحين, وختام الأنبياء – عليهم السلام– برسول الله –ﷺ– دليل على ختام الرسالات, إذ هو رسول العالمين, قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[1], وعالمية الرسول ﷺ ورسالته أضفت عالميةً على الخطاب الديني المنشود, بأن يكون عالميَّاً للبشريَّة جمعاء.

([1]) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

إننا الآن نحتاج إلى تجديد فكر ديني يتسم بسمة العالمية, وذلك لنشر قِيم الإسلام ومبادئه الحقيقية في جميع بقاع العالم, وهذا الدور المنوط به هو الأزهر الشريف –جامعاً وجامعة– بعلمه وعلمائه, باعتباره المؤسسة الدعوية المنوطة بكل القضايا الدعوية في العالم الإسلامي وغيره, ناهيك عن أنه المرجعية الحقيقية الموجودة الآن والتي تنال احترام وتقدير الجميع, كما أنه دور غيره من المؤسسات التي تخدم في مجال الدعوة إلى الله تعالى, ألا وإن قلَّة الهمَّة الموجودة في هذا الإطار أدَّت إلى سلبية الخطاب الديني وفقدانه توازنه, وليس عنا ببعيد أن بعضاً من بلدان العالم الآن لا يصل إليها الخطاب الديني رغم هذا التقدم في عالم التكنولوجيا والتقنيات الحديثة, وإن وصلها فإما أن يكون مغلوطاً أو بصورة مشوَّهة لا تخدم الإسلام بل تضر به وبأتباعه, حتى أصبحت صورة الخطاب الديني صورة باهتة, لا تعكس الصورة الحقيقية للإسلام, بل لا يستطيع الآخر أن يتحقق من بنيان الدين الإسلامي وكيانه من خلالها, فلابد للمؤسسات المعنية بتوجيه هذا الخطاب من عقد مؤتمرات ومعسكرات خاصَّة بالعاملين في هذا المجال الدعوي لتدريبهم تدريباً نظرياً وتطبيقياً على كيفيَّة توجيه خطاب ديني حقيقي, مع توسيع دائرة الترجمة والنشر بكافة لغات العالم –الخارجي منه بالذات– لإظهار الفكر الديني الحقيقي الذي يُمثِّل الإسلام وشخصه, وهذا يحتاج إلى نفس طويل, لأن سياسة النفس القصير في توجيه الفكر الديني المنشود أصبحت سلبيَّة من سلبيَّات الخطاب الديني, من شأنها أن تُصيب الخطاب في مقتل.

وقد تكون فرضية التجديد للفكر الديني في إطار العالمية بالذات من الصعوبة بمكان, إلا أنه لابد من هذا التجديد في توجيه الفكر الديني العالمي حتى وإن كان في نطاق ضيِّق, يتسع شيئاً فشيئاً, المهم هو وجود نقطة في

بدايـة السطر, واتخـاذ خُطـوة علـى الطريـق, وبـإذن الله سنصـل حتـى وإن كنَّـا متأخِّرين, فمن سار على الدَّرب وصل, وما الغايـة منَّا ببعيد.

المبحث الثالث

مراعاة سمة الإنسانية في تجديد الفكر الديني

إن من الخصائص التي اتسمت بها الشريعة الإسلامية, أنه شريعة إنسانية في كافة ما شرعت وكلفت وأمرت ونهت, فالتعاليم الإلهية الموجَّهة إلى الإنسان لا تفصل بين أمور الدنيا وأمور الآخرة, بل لقد راعت حال مَنْ كُلِّف بها وطبيعته وعقليته ونفسيته وزمانه, وراعت بيئته في سائر ما احتوت من أوامر عقدية وتشريعية وتكليفية من عبادات ومعاملات وآداب وأخلاق وسائر ما تضمنت من أحكام, مما يُؤهل الإنسان للجزاء الدنيوي والأخروي معاً[١].

وفي السنة النبوية ما يُؤيد ذلك, فمثلاً: عن عائشة- رضى الله عنها قالت: (أَتَى رَجُلٌ إلى رَسُولِ الله ﷺ فِي المَسْجِدِ فِي رَمَضَانَ, فَقَالَ: يَا رَسولَ اللهِ احتَرَقْتُ, فَسَأله رَسُولُ الله -ﷺ- مَا شَأنُه؟ فَقَالَ: أصَبتُ أَهلي, فَقَالَ: تَصَدَّق, فَقَالَ: واللهِ يَا نبي اللهِ مَا لي شيء وَلا أقدرُ عَليه, قَالَ: اجلس, فَجلسَ, فبينا هُوَ عَلى ذلكَ, أقبلَ رَجلُ يَسوقُ حِماراً عَليه طَعَام, فَقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أَينَ المُحتَرقُ آنفاً؟ فَقَامَ الرَّجلُ, فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: تَصَدَّق بِهذا, فَقَالَ: يَا رسولَ اللهِ أَغيرنا؟ فَواللهِ إنَّا لجياعُ مَا لنَا شيء, قَالَ: فَكُلوهُ)[٢].

---

(١) يُنظر في هذا: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية د عبد الكريم زيدان صـ٣٩ وما بعدها ط بغداد ١٩٨١م, والخصائص العامة للإسلام د يوسف القرضاوي صـ٥١ ط مكتبة وهبة, بتصرف يسير.

(٢) أخرجه الإمام البخاري (٣/٩٥١) برقم (١٩٣٥) كتاب الصيام باب إذا جامع في رمضان, وأخرجه الإمام مسلم (٥/٦٥٤٢) برقم (١١١٢) كتاب الصيام باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ووجوب الكفارة الكبرى فيه وبيانها, وأنها تجب على الموسر والمعسر وتثبت في ذمة المعسر حتى يستطيع.

إن الشريعة الإسلامية لم تأت لتكون حجراً صواناً على قلب أتباعها, ولكنها انطلقت من منطلق الإنسانية, وخدمه الإنسان, وأنها للإنسان ولصالحه, في الوقت ذاته ادعت دعوات كثيرة أنها جاءت لخدمة الإنسان, والحق: أن الدعوات التي حادت وشردت عن منهج دعوة الحق, ما جاءت لغاية الإنسان ولصالحه. وإنما جارت عليه باسم الإنسانية, وأسأت إلى كرامة الإنسان من حيث أرادت الإحسان إليه, ودعت إلى هلاك الإنسان وأهملته, وجاهدت سعيها في طغيان جانب على جانب, قد يكون الجانب المادي أو الروحي أو العكس, وما تاريخ البشرية على مر العصور والدهور منا ببعيد, فلو قلَّبنا صفحاته وقرأنا سجلاته لوجدنا أن الإنسانية قد حُرمت السكينة والطمأنينة في ظل الأنظمة البشرية, رغم ما تباهت به من حصون ودروع وعدة وعتاد ومظاهر دنيوية خلابة.

إن كل دارس للإسلام في كتابه, وسنة رسوله ﷺ يتبين له بجلاء أنه وجه عناية بالغة بالجانب الإنساني, وأعطاه مساحة رحبة من رقعة تعاليمه وتوجيهاته وتشريعاته, بل إذا تأملنا العبادات الكبرى نفسها وجدنا إحداها إنسانية في جوهرها وهى عبادة الزكاة فهي تؤخذ من الغنى لترد على الفقير, وهى للأول تزكية وتطهير وللثاني إغناء وتحرير, قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)[1], وكذلك العبادات الأخرى لا تخلو من جانب إنساني نلمحه في ثناياها, فالصلاة مثلاً عون للإنسان في معركة الحياة, وطمأنة في ظُلمة الليل, قال تعالى: (وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ)[2].

([1]) سورة التوبة من الآية ١٠٣ .

([2]) سورة البقرة من الآية ٤٥.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: (لَقَد كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ فَيُصَلِّي مِنَ اللَّيل...)[1] الحديث, وما ذلك إلا أنها تعينه على مسيرة الجهاد والدعوة.

وكذلك الصوم, فهو تربية لإرادة الإنسان على الصبر في مواجهة المصاعب ولذلك سَمَّى النبي ﷺ شهر رمضان شهر الصبر وشهر المواساة, وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (الصَّومُ نِصفُ الصَّبرِ)[2], والحج مؤتمر رباني إنساني, دعا الحق سبحانه عباده المؤمنين (لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ)[3], فشهود المنافع هنا يمثل الجانب الإنساني في أهداف الحج, وفوق ذلك نجد النبي ﷺ يرفع إلى درجة العبادة كل عمل يؤديه المسلم يترتب عليه نفع مادي لإنسان أو سرور نفسي لإنسان, بل إن النبي ﷺ ليرفع بهذا اللون من البر والخدمة الإنسانية اليومية كف الأذى عن الطريق, والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر, وإصلاح ذات اليمين..إلخ, إلى منزلة الواجب الذى يُؤاخذ مَن تركه عمداً وهو قادر عليه[4].

ومن هذا المنطلق فإن الشريعة الإسلامية لم تهمل الجانب الإنساني ولم تغفل عنه في كل مجالات حياته, وهي أيضاً لم تغفل عن أموال المجتمع الإنساني وما يتطلبه من علاج وإصلاح, ولم تنفصل عن مشكلات المجتمع أو مشاكل البشر وراعت متطلباتهم ومقتضيات طبيعتهم وقاومت الإنحراف والفساد في حياتهم, ولم لا؟ وهى الرسالة المتمّمة والمكمّلة لما مهدت له الدعوات

---

(1) أخرجه الإمام البخاري (٣٢٤٧/٦) كتاب الصلاة (٥١٥) باب من قال لا يقطع الصلاة شيء.

(2) أخرجه الإمام البخاري (١٨٥/١) برقم (١٢٥٤) كتاب الصوم.

(3) سورة الحج من الآية ٢٨.

(4) الخصائص العامة للإسلام د يوسف القرضاوي صـ٦٤ ط: مكتبة وهبه.

السابقة عليها حتى أتمَّت للبشرية كمالها ونضجها, فصانت الحقوق اللازمة للحياة وقررت بجدارة مُحِقٍ -سبقها على سائر الدعوات البشرية- ومن هذه الحقوق: حق الحياة, وحق الكرامة, وحق التفكير, وحق التعليم, وحق الأمن, وحق الكفاية من العيش, حتى حق التدين والاعتقاد..الخ, قال تعالى: (وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ)[١].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: (قَالَت هِنْدُ أُم مُعَاويَة لرَسولِ الله ﷺ إنَّ أبَا سُفيانَ رَجلُ شَحِيحُ فَهَل عَلىَّ جُناح أَن آخذ مِن مَالهِ سِرَّاً ؟ قَالَ: (خذِي أَنتِ وَبَنُوكِ مَا يَكفِيكِ بِالمَعروفِ)[٢], ففي الحديث توجيه نبوي يصون حق الفرد وحق المجتمع ويحافظ على كيان الأسرة من التشرد والتمزق حتى لا تكون عرضة للضياع, وكأن ريح الجاهلية هبت من جديد, لتحارب الأمن والاستقرار وتدعو إلى الشح والبخل, ونجد أن التوجيه الإنساني من رسول الإنسانية ﷺ جاء مشترطاً بالمعروف فليس بداع إلى الاسراف أو التبذير.

وهذه الحقوق الإنسانية وغيرها الكثير والكثير, ليس منحة من مخلوق يَمُن بها على مخلوق مثله, فيَمُن عليه بها إن شاء ويسلبها منه متى شاء- كما هو في سائر الأنظمة البشرية السوية التي فطر الله الناس عليها, قال تعالى: (فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ)[٣].

([١]) الكهف من الآية ٢٩

([٢]) أخرجه البخاري برقم (٢٢١٢) كتاب البيوع, باب من أجرى من أمر الأنصار على ما يتعارفون بينهم, وأخرجه أيضاً في كتاب الأحكام برقم (٧١٨٠) باب القضاء على الغائب.

([٣]) سورة الروم الآية ٣٠.

ومما سبق كله يظهر جليّاً أن خصيصة الإنسانية في الدعوة الإسلامية لها أثر كبير في توجيه خطاب ديني إنسانيّ, ذلك أن النزعة الإنسانية هي لُحمة الخطاب الديني المنشود, وكل ذلك لانقاذ الإنسانية من خطاب يجهل قدرها ويحط من شأنها, أو يُغرِّر بها فيرديها التهلكة, أو ينظر إلى المرأة مثلاً على أنها أمة أو جارية لا رأي لها ولا فكر, يستعبدها زوجها ويسلبها حقها في التفكير والكرامة, ينظر إليها على أنها مصدر القلق والمعصية, هنَّ صواحب يوسف, وكيدهن عظيم, وهي الضلع الأعوج الذي يحتاج إلى كسره..الخ, مما أهمل فيها إنسانيَّتها وسلبها كرامتها.

ولقد لعبت كُتب التراث في هذا الفهم دوراً مهماً, خُذ مثلاً قول الإمام الطبري –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى: (وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ)(١), قال: إن الهجر هو: القيد, من هجرت البعير إذا قيَّدته وأوثقته, فالمرأة التي يخشى زوجها نشوزها, عليه أن يُقيِّدها وان يشدد وثاقها, ويجعلها حبيسة حتى يستقيم أمرها(٢).

وهذا الرأي أيضاً قد عزاه الإمام القرطبي –رحمه الله– في تفسيره إلى الإمام الطبري –رحمه الله– ونَقَده قائلاً: "وقال في معنى "واهجروهن": أي: شدّوهن وثاقاً في بيوتهن, من قولهم: هجرَ البعيرَ أي: ربطه بالهِجار, وهوحبل

(١) سورة النساء من الآية ٣٤.

(٢) يُنظر هذا الرأي للإمام ابن جرير الطبري عند تفسيره لهذه الآية الكريمة في كتابه (جامع البيان في تأويل القرآن) (جـ٤ صـ٣٠١) المعروف بـ" تفسير الطبيري" المتوفى سنة ٣١٠هـ.

يُشدّ به البعير, وهو اختيار الطبري وقدح في سائر الأقوال, وفي كلامه في هذا الموضع نظر"[١].

وقد ردَّ عليه أيضاً القاضي أبو بكر العربي –رحمه الله– في أحكامه فقال: "يا لها من هفوة من عالِم بالقرآن والسنة, والذي حمله على هذا التأويل حديث غريب رواه ابن وهبٍ عن مالك أن أسماء بنت أبي بكر الصديق –رضي الله عنهما– امرأةَ الزبير بن العوام –رضي الله عنه– كانت تخرج حتى عوتب في ذلك, قال: وعتب عليها وعلى ضَرّتها, فعقد شعر واحدة بالأخرى ثم ضربها ضرباً شديداً, وكانت الضَّرة أحسن اتقاء, وكانت أسماء لا تتَقي فكان الضرب بها أكثر, فشكت إلى أبيها –رضي الله عنه– فقال لها: أي بُنيَّة أصبري, فإن الزبير رجل صالح, ولعلَّه أن يكون زوجَك في الجنة, ولقد بلغني أن الرجل إذا ابتكر بامرأة تزوَّجها في الجنة, فرأى الربط والعقد مع احتمال اللفظ مع فعل الزبير فأقدم على هذا التفسير"[٢].

إن الفهم الخاطئ والمغلوط للقضايا الدعويَّة والجمع بين الغث والسَّمين أصاب الخطاب الديني بشلل فكري, فمثلاً فُهِم أن المرأة ما دامت خُلقت من ضلع أعوج, فإن في أصلها اعوجاج وهو عيب يُلاحقها, لكنَّه لم يعلم أن منطقة هذا الضلع الأعوج الذي هو في أعلى الصدر هي منطقة حسَّاسة وهو يحمي أخطر منطقة في الجسد, ولولا هيئته هذه التي خلقها الله عليها لكان الإنسان مُعرَّض للضرر من أقل كدمة أو صدمة تُصيبه, ثم هو يحمي منطقة القلب مركز العاطفة والشعور, فهل يُمكن بعد هذا أن نستغني عنه أو نُقلل من شأنه؟ كذلك المرأة ودورها.

---

(١) تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبي (جـ٣ صـ١٧٤٢) ط دار الريان للتراث بالقاهرة, بتصرف بسيط.

(٢) السابق نفسه..الصفحة نفسها.

فالخطاب الديني في حدِّ ذاته هو خطاب عقل وفكر, وهو خطاب لتلبية الحاجات الإنسانية من كل جوانبها في أُطر مضبوطة بالشرع الحكيم, فلم يُهمل الإسلام بخطابه الإنساني الجوانب الإنسانية ولم يجمدها, بل كان لها هادياً وداعياً ومعيناً في العديد من مجالاتها حين فتح لها الاستقلال المطلق في مجالات رحبة, وكل هذا من الإنسانية بمكان.

إننا الآن نحتاج إلى فكر ديني جديد يتسم بسمة الإنسانية ويُقدِّرُها, ويحترم فيها رغباتها وتطلعاتها, وما ذلك إلا لأن الدين لله والوطن للجميع, والكون الذي هو محل الوجود ليس خاصَّاً بفئة معيَّنة أو طبقة, وإنما هو للإنسانية جمعاء مؤمنها وكافرها.., مما يفرض علينا نحن المسلمين من توجيه خطاب ديني نستطيع من خلاله أن نتكيَّف مه الآخرين, ويعيش الآخرون في ظلِّه معنا حياة آمنة مطمئنة, لا إرهاب فيها ولا ترويع, ولن يتم ذلك إلا من خلال هذا الخطاب الذي يرسم علاقة واضحة جليَّة للمسلم بغيره, نعكس من خلاله أسس الإسلام في ترسيخ العلاقات مع الآخرين أفراداً ودولاً, يخدم الإنسانية ويتكيَّف الناس في ظلِّه, فتزدهر شجرة الإسلام وتُثمر.

المبحث الرابع

مراعاة سمة التدرج في تجديد الفكر الديني

لقد راعت التشريعة الإسلامية التدرج في كل حاجات النفس البشرية في فرض التكاليف, ووضع الحرام والحلال عليها, بما لا يدع مجالاً لأي احتمال من الضرر, بحيث لو كان الإنسان هو الذى يشرع لنفسه ما سعى في مصلحته كما سعى إليها تشريع الحق سبحانه, وشتان بين شرع الخالق وشرع المخلوق, لذا فقد وضع الله التدرج في الأحكام كي تقبلها النفس البشرية بطريقة ميسورة راضية لا تضار منها ولا تضر بها, وهذا منهج الإسلام في كل تشريعاته[١].

إن هذه الحقيقة لا ريب فيها, ومن الأمثلة على ذلك: منهج الإسلام في تحريم الخمر, مراعياً سِمة التَّدرج في التحريم, لماذا؟ لأنه أدعى للقبول وعدم الرفض, فقد كان العرب في جاهليتهم مُولعين بشربها والمنادمة عليها, ظهر ذلك في لغتهم وتسميتهم لها بأسماء متعددة وفى وصفهم لها في أشعارهم ومجالسهم, فلما جاء الإسلام أخذهم بمنهج تربوي حكيم, فتدرج معهم في تحريمها, فبدأ بتهيئة النفوس لتقبل ما ينزل فيها من حكم, فلقد قام رسول الله ﷺ فقال: (يَا أَهلَ المَدِينَةِ إنَّ اللهَ يَعرِضُ عَلىَّ فِي الخَمرِ تَعرِيضَاً, لَا أَدْرِي لَعلَّهُ تَحْرِيمُ الخَمْرِ, فَمَن أَدْرَكَته هَذه الآيَةُ وَعندَه مِنْهَا شَيءُ فَلا يَشرَبها وَلا يَبيعهَا, فَسَكَبُوهَا فِي طُرِقِ المَدِينَةِ)[٢].

وبعد ما غرس التشريع الفكرة في الأذهان, جاء التوجيه الإلهي ليجعل القضية موضعاً للبحث من أُولى العقول والألباب, قال تعالى: (وَمِن ثَمَرَاتِ

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشيخ سيد قطب صـ١٠٨ ط: دار الشروق.

(٢) أخرجه الإمام النسائي (٢٥٨/٦) كتاب التفسير رقم (٣١٥٢) باب تفسير سورة البقرة.

ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ)[١], ومتى شد الإسلام العقول, إذا يضع القضية موضع نظر: (يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ)[٢], ثم يأتي التوجيه الرباني يأمرهم بأداء التكاليف كالصلاة مثلاً, في الوقت ذاته يأتي الأمر بألا يَقْدُمُوا عليها وهم سُكَارى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ)[٣], ثم يبين العلة في ذلك: (وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ)[٤].

وتبقى القضية تحتاج إلى حل جذري وتوجيه قطعي, فتأتى الآية الجامعة القاطعة, لتضع الحل المناسب لهذه القضية المتشابكة المتشاجرة, قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ)[٥].

هذا, ولم تكن السنة النبوية بمنأى عن هذه القضية الهامة, وكيف هذا؟ وهى تفصيل لما أُجمل في القرآن, وتوضيح لما أُبهم, وتخصيص لما جاء بلفظ العموم[٦], فإذا بالسيدة عائشة- رضى الله عنها- تبين هذا التوجيه النبوي فيما روته عن رسول الله ﷺ حيث إنها قالت في حق القرآن: (..وَمَا

([١]) سورة النحل الآية ٦٧.

([٢]) سورة البقرة من الآية ٢١٩.

([٣]) سورة النساء من الآية ٤٣.

([٤]) السابق نفسه, من الآية نفسها.

([٥]) سورة المائدة الآيتان ٩٠- ٩١.

([٦]) دراسات أصولية د محمد إبراهيم الحفناوى من صـ٤٨- ٥٥ ط بدون.

يَضُرُّكَ أيَّةَ آيَةَ قَرَأت قَبْل, إنَّمَا نَزَلَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنه سُورَة مِن المُفصل فِيها ذِكرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ, حَتَّى إذا ثَابَ النَّاسُ فِي الإسلامِ نَزَلَ الحَلالُ وَالحَرامُ وَلو نَزَلَ أَولُ شيء لَا تَشرَبوا الخَمْرَ, لقَالوا: لَا نَدَع الخَمْرَ أَبَداً..)[١].

ولم تكن عقول الصحابة النيِّرة, لتقف أمام هذه القضية عجزى, وهى الألباب التي استنارت بنور القرآن, فها هو ذا عمر- رضى الله عنه- يقول: (اللَّهُمَّ بيِّن لنَا فِي الخَمْرِ فَنَزَلَتْ: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ)[٢], فَدَعَا النَّبيُ ﷺ عُمَرَ فَتَلاهَا عَليه, فَكَأنَّهَا لَم تُوافِق مِن عُمَرَ الذي أرَادَ, فَقالَ: "اللَّهُمَّ بَيِّن لنَا فِي الخَمرِ, فَنزَلَت: (يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ)[٣], فَدَعَا النَّبيُ ﷺ عُمَرَ فَتلاهَا عَليه, فَكَأنَّهَا لَم تُوافِق مِن عُمرَ الذي أرَادَ, فَقالَ: اللَّهُمَ بيِّن لنَا فِي الخَمرِ, فَنزَلَت: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ)[٤]، حَتَّى انتهَى إلى قوله: (فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ)[٥], فدعَا النَّبيُ ﷺ عُمَرَ فَتلاهَا عَليه, فَقَالَ عُمَرُ: انتَهَينَا يَا رَب)[٦], لقد كان جواب المؤمنين على هذا جواباً حاسماً مستمداً من قوة الآية في التحريم, واستعداد القلوب للقبول بعد

([١]) الحديث كاملاً أخرجه البخاري (١٤٧/٦) برقم (٤٩٩٣) كتاب فضائل القرآن. باب تأليف القرآن.

([٢]) سورة النساء من الآية ٤٣.

([٣]) سورة البقرة من الآية ٢١٩.

([٤]) سورة المائدة الآية ٩٠.

([٥]) سورة المائدة من الآية ٩١.

([٦]) أخرجه البخاري (٨٥٢/٦) رقم (٤٩٩٣) كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن.

التهيئة, فلقد أثمر هذا التدريج ثمرته, فصنع المؤمنون العجب بعد هذه الآية, فكان الرجل في يده الكأس قد شرب منها بعضاً وبقى بعضاً, فحين تبلغه الآية ينزع الكأس من فِيه, ويفرغها على التراب, حتى صارت شوارع المدينة بحراً من الخمور.

ثم كان للتوجيه النبوي موقفه أمام تحريم التجارة فيها, أو اتخاذها وسيلة من وسائل التكسب أو الحصول على لقمة العيش[١], فعَن عَائِشَةَ – رضي الله عنها– قَالَتْ: (لمَّا نَزَلَتْ الآيَاتُ مِن آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي الرِّبَا, قَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلى النَّاسِ ثُمَّ حَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الخَمْرِ)[٢], وفى رواية: (لَمَّا نَزَلَتْ الآيَاتُ الأواخِرُ مِن سُورَةِ البَقَرَةِ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَلاهُنَّ فِي المَسْجِدِ فَحَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الخَمْرِ)[٣], وفى أُخرى: (لَمَّا أُنزِلَتْ الآيَاتُ مِن آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ, قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَرَأَهُنَّ عَلينَا, ثُمَّ حَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الخَمْرِ)[٤].

ولقد كان لهذا التوجيه النبوي أثره الفعال في المجتمع المسلم, الذى سرعان ما استجاب لأمر رسول الله ﷺ ولما لا؟ وهو طاعة لأمر الحق سبحانه, مصداقاً لقوله تعالى: (قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ)[٥], وقوله: (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ)[٦].

---

(١) الحلال والحرام في الإسلام د يوسف القرضاوي صـ٦٦ ط مكتبة وهبة.

(٢) أخرجه الإمام البخاري (٣٢١/٦) برقم (٤٥٤٠) كتاب تفسير القرآن باب (وأحل الله البيع وحرم الربا).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤/٧) برقم (٤٥٤١) كتاب تفسير القرآن باب (يمحق الله الربا).

(٤) أخرجه البخاري(٧٤١/٠٢) رقم (٤٥٤٣) كتاب تفسير القرآن باب (وان كان ذو عسرة).

(٥) سورة آل عمران من الآية ٣٢.

(٦) سورة الحشر من الآية ٧.

ثم بلغ الأمر في الإسلام إلى درجة الحيطة وأعلى درجات الكمال في الحفاظ على النفس البشرية والبنيان الجسدي, ولما لا؟ والله قد خلقه بيده سبحانه وأسجد له ملائكته, فالإنسان بنيان الله ملعون من هدمه, من أجل ذلك قطع الإسلام السبل التي يترتب عليها أثر الخمر, لماذا؟ لأنه ﷺ لم ينظر إلى المادة التي تتخذ منه الخمر, وإنما نظر إلى الأثر التي تحدثه وهو الإسكار, فما كان فيه من قوة الإسكار فهو الخمر, ومهما وضع الناس لها من ألقاب وأسماء ومهما تكن المادة التي صُنعت منها[١], عن عائشة– رضى الله عنها– قالت: (سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن البِتْعِ؟[٢] فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كُلُ شَرابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامُ)[٣], وفى رواية: (سُئلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن البِتْع ؟ فَقَالَ: (كُلُ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ)[٤].

إن هذا التدرج الحكيم في توجيه الخطاب الديني الذى سلكته الشريعة الإسلامية مراعية طبيعة النفس البشرية في حُبِّها لما جُبلت عليها جدير بأن يحظى أصحابه بالسعادة البشرية, لماذا؟ لأن من شأنه أن يحقق الراحة والطمأنينة لدى النفس البشرية التي تُدافع عما تُحب وتعشق مهما كُلِّفت من غال أو نفيس, وفي الوقت ذاته يحقق الغاية المرجوة, والثمرة المطلوبة, ولن نجد مثل هذا النظام الدقيق في خطوات نهجه ونظمه, ذلك أن غاية الخطاب الديني هو الوصول بالناس لتطبيق الدين في حياتهم ليفوزوا في الدارين,

---

([١]) الحلال والحرام في الإسلام د يوسف القرضاوى صـ٦٧ ط مكتبة وهبه.

([٢]) وهو: نبيذ العسل وكان أهل اليمن يشربونه, مسلم بشرح النووي ١٨٩/٧.

([٣]) أخرجه البخاري (٧٨٩/٦) رقم (٥٥٨٦) كتاب الأشربه باب الخمر من العسل وهو التبغ.

([٤]) أخرجه البخاري (٣٦٩/٦) رقم (٥٥٨٥) كتاب الأشربة باب الخمر من العسل وهو التبغ, وأخرجه مسلم رقم (٢٠٠١) ورقم (٢٠٠٢) كتاب الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام.

ولتحقيق هذا لابد من التدرج والمرحلية في الخطاب الديني المُوجَّه, اقتداءً في ذلك برسول الله ﷺ في قضية تحريم الخمر وغيرها من القضايا الأخرى, ولابد أن يكون هذا هو دأب العاملين بتوجيه الخطاب الديني.

ومن الظلم في حق الإسلام أن نقارنه الدعوات الباطلة المنحرفة عن منهج الحق ونور الإيمان, فالشريعة التي وقفت هذا الموقف الحاسم في هذه القضية إنما تظهر لنا مدى عنايتها ومراعاتها لحاجات النفس البشرية, متنقِّلة معها خطوة تلو الأخرى, لكي تطمئن وتقبل, فتحيا وتموت من أجل الفكرة.

وفي الوقت ذاته لم تكن الشريعة الإسلامية حِكراً على شهوات الإنسان ولذَّاته, وإنما أباحت الشريعة له أن يستمتع بنعم الحق سبحانه ما دامت مضبوطة في إطار شرعي, وهنا تبيح الشريعة للإنسان أن يشرب النبيذ الذى لم يشتد ولم يصر مسكراً, عن ثُمَامَة بن حَزْنٍ القُشَيْرِيِّ[١] قال: (لَقيتُ عَائِشَةَ فَسَألتُهَا عَن النَّبيذِ؟ فَدَعَت جَاريَةً حَبَشيَّةً, فَقَالت: سَل هَذِه فإنَّهَا كَانَت تنبذ لرَسُول اللهِ ﷺ فَقَالت الحَبَشيَّةُ: كُنتُ أَنْبِذُ لَه فِي سِقَاءٍ مَن اللَّيلِ وأُوكيهِ[٢] وأُغَلِّقُه فَإذَا أصبَحَ شَرِبَ مِنه)[٣], وفى رواية: (كُنَّا نَنبذُ لرَسُولِ اللهِ ﷺ مَع سِقاءٍ يُوكى أَعْلاهُ وَلَه عَزلاءُ[٤] نَنبذُهُ غُدوةً فَيَشْرِبُه عشاءً, وننبذه عشاءً فَيَشْرِبُه غدوةً)[٥].

---

(١) عُرف -رضي الله عنه- بتحريه الدقة في أمور الشرع, والبحث عن الحلال والحرام, سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ترجمة رقم (٨٧٣٢).

(٢) أي: أشده بالوكاء وهو الخيط الذي يشد به رأس القربة, مسلم بشرح النووي ٧/ ١٩٥.

(٣) أخرجه مسلم(٣٦٩/٢) رقم(٢٠٠٥) كتاب الأشربة باب إباحة النبيذ الذي لم يصر مسكراً.

(٤) هي: بفتح العين المهملة وإسكان الزاي وبالمد, وهو الثقب الذي يكون في أسفل المزادة والقربة, مسلم بشرح النووي ٧/ ١٩٦.

(٥) أخرجه الإمام مسلم برقم (٢٠٠٥) كتاب الأشربة.

وبهذا يبقى لسمة التدرج في الخطاب الديني أثرها الواضح في قبول منهج الدعوة الإسلامية لتطبيق شرائعها وأحكامها, وفق طبيعة النفس البشرية التي جُبلت على حب التدرج في تقبلها للأوامر والنواهي, حتى إذا ما استقرت النفس وهدأ طبعها, جاءت الأوامر صريحة في تطبيق الحكم والمنهج, وهي لفتات هامة للدعاة إلى الله –تعالى– في طريق دعوتهم, لئلا يُقابَلوا بالجمود, فتخسر الدعوة كثيراً من رجالاتها, ويصيرون عبأً عليها, وليسوا شموساً مُنيرة لها.

وهذه حقيقة لا مراء فيها, حيث إن رداءة الفكر الديني اليوم أفقد الشريعة الإسلامية الكثير من روحها وحيويَّتها, فهو خطاب يعيش في وادٍ والناس في وادٍ آخر, وكأن الدعاة إلى الله تعالى أصبحوا يعيشون على كوكب الأرض ولكنهم يُخاطبون أناساً يعيشون على كوكب آخر, ذلك أن الخطاب الديني اليوم فقد سمة التَّدرج التي ما وُجدت في الشريعة الإسلامية إلا لمراعاة حال الناس والتَّكيُّف معهم حتى تصل بهم إلى الغاية المطلوبة منهم ولو بعد حين.

وما ذلك إلا لأن الأفكار الراسخة في العقل لا يُمكن تغييرها فجأة, بل لابد من الأناة والحلم, والتدرج معها عن طريق إظهار بطلانها, وإقناع معتقدها ببطلان فكرته, بطلاناً يقوم على الدليل والحجة, لماذا؟ لأن غرس الفكرة في الأذهان سبباً في سرعة الاستجابة للأمر وتنفيذه.

ومتى حدث ذلك أصبح المتلقي أداة سهلة في يد الداعي يُوجهه كيف شاء, وهذه هي أهمية سمة التدرج في توجيه الخطاب الديني الجديد, حيث إن الإنقضاض على الأفكار لا يأتي بخير, بل يُزيد من تشبث المدعو بفكرته وتعلقه بها, بل الاستماتة في طريقها, وهذه طبيعة النفس البشرية فيما جُبلت

عليه, وهنا فلابد من توجيه خطاب ديني يتدرج مع طبيعة النفس البشرية, ويدور معها حيث دارت, ليصل بها في نهاية المطاف إلى افعل أو لا تفعل.

المبحث الخامس

مراعاة سمة الواقعية في تجديد الفكر الديني

إن من خصائص الشريعة الإسلامية, أنها تميزت بسمة الواقعية[١], عن سائر الدعوات المعاصرة لها, والمزامنة لعهدها, ذلك أنها قد راعت في مضمونها وموضوعها واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعية, ووجود مُشَاهد, ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه, ووجود أسبق وأبقى من وجوده, وهو وجود الواجب لذاته وهو وجود الله تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا)[٢].

وكذا مراعاة واقع الحياة من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر, تنتهى بالموت, وتُمهد لحياة أخرى بعد الموت, قال تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)[٣], وفى هذه الحياة (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)[٤], وتخلد فيما عملت وقدمت (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ)[٥], فلم تكن الشريعة بمنأى عن هذه المرحلة المهمة في حياة البشرية, وإلا لكانت الدعوة غائبة عن واقع البشر,

---

([١]) يُنظر في هذا: المدخل إلى علم الدعوة د محمد أبو الفتح البيانوني صـ١٢٨ ط مؤسسة الرسالة, وأصول الدعوة د عبد الكريم زيدان صـ٦٩ ط: مؤسسة الرسالة ناشرون.

([٢]) سورة الفرقان من الآية ٢.

([٣]) سورة الزمر الآيتان ٣٠- ٣١.

([٤]) سورة المدثر الآية ٣٨.

([٥]) سورة الانفطار الآيات ١٣- ١٤.

فثمة عيب يلحق بها, ولكن أنَّى هذا؟ (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ)[١].

كما راعت الشريعة الإسلامية أيضاً واقع الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة, فهو نفخة من رُوح الله تعالى في غلاف من الطين, ففيه العنصر السماوي والعنصر الأرضي: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ)[٢], ومن حيث هو ذكر وأنثى لكل منهما تكوينه ونزعاته ووظيفته, ومن حيث هو عضو في المجتمع لا يستطيع أن يعيش وحده, ولا أن يفنى تماماً في المجتمع, ولهذا تتصارع في نفسه عوامل الأنانية والغيرية والعندية وغيرها.

ثم راعت الشريعة الإسلامية واقع الناس في كل ما دعت إليه من عقائد وعبادات وآداب وتشريعات, أما عن واقعية العقيدة فقد تضمنت حقائق قائمة في الوجود, ويقبلها العقل وتستريح إليها النفس وتستجيب لها الفطرة السليمة لا أوهاماً متخيلة في الوجود, عن عائشة– رضى الله عنها– قالت: (قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ ابن جَدعَان كَانَ فِي الجَاهِليَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ, وَيُطْعِمُ المسْكِينَ, فَهَل ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنفَعُهُ, إنَّه لَمْ يَقل يَومَاً: (رب اغفر لى

([١]) سورة الملك الآية ١٤.

([٢]) سورة الحجر الآيتان ٢٨– ٢٩.

خطيئتى يوم الدين)[١][٢], فالحديث توجيه لقضية إيمانية تكليفية, تمثل ركن الدين وعموده, إذ لا قيمة للعمل ما لم يقم على الإيمان بالله تعالى, ولا ثمرة مرجوة في الآخرة عمن مات على الكفر.

ثم جاءت الأحاديث النبوية بتوجيهات إيمانية عقيدية تحث على ذلك وتؤكده, بل كانت الأساس الذى بدأ به النبي ﷺ مسيرة الدعوة إلى الله تعالى, والجهاد في سبيله, عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (لَما نَزَلَتْ: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ)[٣], قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلى الصَّفَا, فَقَالَ: يَا فَاطِمَة بِنت مُحَمَّد, يَا صَفِيَّة بنت عَبد المُطَّلب, يَا بَنِي عَبد المُطَّلب, لَا أَملِكُ لَكُم مِنَ اللهِ شَيئاً, سَلُونِي مِن مَالي مَا شِئْتُم)[٤].

وأما واقعية العبادة فإن الشريعة الإسلامية تروى ظمأ الكائن الروحي في الإنسان, وتشبع نهمه, وتملأ فراغ نفسه, كما راعت طاقته المحدودة, فلم تكلفه ما لا يحتمله ويشق عليه, أو تشرع له ما يحرجه ويفتنه, قال تعالى: (وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ

([١]) هو اقتباس من قوله تعالى على لسان خليله ابراهيم -عليه السلام-: (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) سورة الشعراء الآية ٨٢.

([٢]) أخرجه الإمام مسلم (٣/٤٥٦) برقم (١١٤) كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمله.

([٣]) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

([٤]) أخرجه الإمام مسلم (٦/١٤٥) برقم (٢٠٥) كتاب الإيمان باب قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين).

وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ)(١), وقال: (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ)(٢), وقال: (فَٱتَّقُواْٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ)(٣),

وعن عائشة – رضي الله عنها: (أَنَّ النبي ﷺ دَخَلَ عَليهَا وَعِنْدَها امرأَةُ, قَالَ: مَنْ هَذهِ؟ قَالتْ: فُلانَة تَذكرُ مِن صَلاتِهَا, قَالَ: مَه عَليكُمْ بمَا تطيقونَ, فوالله لَا يَملُ اللهُ حَتَّى تَملوا, وَكَانَ أَحب الدِّينِ إليهِ مَا دَاوَمَ عَليهِ صَاحِبُهُ)(٤).

وأما واقعية الأخلاق فقد راعت الشريعة الإسلامية الطاقة المتوسطة المقدورة للناس, فاعترفت بالضعف البشرى, وبدوافع وحاجات الإنسان المادية والنفسية, فلم توجب على من يعتنق مبادئها أن يتخلى عن ماله ومدخراته وأمور معيشته بل راعت حاجته إلى المال واعتبرته توأم حياته, وأمرته بتنميته والمحافظة عليه وكسبه من الحلال وإنفاقه فيه, كما راعت التفاوت الفطري والعملي بين الناس حتى في قضية الإيمان والالتزام بما أمر الله, بل على أن الإيمان درجات يزيد وينقص على قدر إيمان الفرد.

وأما واقعية الشريعة(٥): فلم تغفل الواقع في كل ما أحلت وحرمت ولم تهمل الواقع في كل ما شرعت من أنظمة وقوانين للفرد وللأسرة والمجتمع وللدولة وللإنسانية, ومن دلائل الواقعية في التشريع نلمحها فيما قررت من

---

(١) سورة الحج الآية ٧٨.

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٨٦.

(٣) سورة التغابن من الآية ١٦.

(٤) أخرجه الإمام البخاري (٨٥/١) رقم (٤٣) كتاب الإيمان باب أحب الدين إلى الله عز وجل أدومه.

(٥) الخصائص العامة للإسلام د يوسف القرضاوى صـ١٤٢- ١٦٨ط مكتبة وهبه.

أصول, كالتيسير ورفع الحرج –كما سيأتي– ومراعاة سنة التدرج في الأحكام– كما مر– والنزول عن المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى لتكييف أحكامها الفرعية تبعاً له حتى لا تهدر مصالح العباد وتعطل مسيرة الحياة.

وبهذه المفاهيم السابقة لمراعاة الدين الإسلامي لواقع حياة الإنسان بكل ما فيها من جوانب عقائدية وتعبدية وتشريعية وأخلاقية, يمكن استنتاج إلى أي مدى يكون لمراعاة هذه السِّمات في تجديد الفكر الديني أثرها الفعَّال في الدعوة إلى الله –تعالى– بكل جوانبها, وفي الوقت ذاته تَمَيُّزِهَا ومغايرتها لكل الدعوات المعاصرة لها –في أي وقت أو زمن– بمراعاتها للواقع الإنساني, الأمر الذي يفرض على القائمين بأمر الدعوة الآن أن يُقدِّموا خطاباً دينيِّاً واقعيِّاً, يُعاين الواقع ويُلامسه, ويُقدِّم حُلولاً لمشكلات العصر وعقباته, ألا وإن واقعية الخطاب الديني يُساهم كثيراً في تيسير طريق الدعاة إلى الله –تعالى– في دعوتهم الإسلامية, وتذليل الصعاب أمامها, وإسقاط أهدافها وغاياتها على هذا الواقع الملموس, وفق ما يقتضيه العصر وما يتطلبه الواقع, وهنا فإن العقل البشري يتقبل هذه الدعوة, وتستريح لها النفس, وتستجيب لها الفطرة السَّويَّة.

المبحث السادس

مراعاة سمة التيسير ورفع الحرج في تجديد الفكر الديني

إن من خصائص التصور الإسلامي, أنه يتصف بسمة التيسير[١] ورفع الحرج[٢], ولا يخفى علينا أن الإنسان بفطرته يميل إلى كل أمر يسير, مما يفرض على الدعاة إلى الله تعالى أن يكون خطابهم الديني قائماً على التيسير, حيث إن هذه الخصيصة وثيقة الصلة بحياة الإنسان الخاصة والعامة, فهي تجمع بين الأصالة والمعاصرة حيث إنها عميقة الجذور في الشريعة الإسلامية وفى مصادرها الصحيحة ولذلك فهي خصيصة أصيلة تسير

---

(١) التيسير لغة: مأخوذ من اليُسر, يُقال: أيسر الأمر, أي سهَّله ولم يُعسِّره, ولم يشق على غيره أو نفسه فيه, ومن التنزيل:(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) القمر الآية ١٧, أي سهلناه للحفظ والتعبد به وجعلنه للإتعاظ ميسوراً, وفى الحديث الذي أخرجه البخاري: (يسروا ولا تعسروا..) واليسر في اللغة: اللين والإنقياد, ويقال: ياسر فلاناً إذا لاينه, وتيسرت البلاد إذا أخصبت, واليسر والميسرة: الغنى, وكذلك اليسار, ومنه قوله تعالى: (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) البقرة الآية ٢٨٠, ومن معاني التيسير في اللغة: التهيئة, ومنه قوله تعالى: (فسنيسره لليسرى) الليل الآية ٧, أي: نهيئه للعودة للعمل الصالح, ومعنى التيسير في الإصطلاح الفقهي: موافق لمعناه اللغوي. الموسوعة الفقهية جـ١٤ صـ٢١٢ ط وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية, الكويت, ط: الأولى, و لسان العرب لابن منظور مادة "يسر" (جـ٥ صـ٢٩٢).

(٢) يُنظر في هذا: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية صـ٣٩ وما بعدها ط بغداد ١٩٨١م, ومظاهر التيسير ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية د فرج على الفقيه حسين صـ٣٣ ط مكتبة قتيبة ببيروت لبنان ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م, منهج الدعوة في العهد المدني د حسن عبد الحميد حسن صـ١٦٥ ط بدون.

مع مقتضيات الناس ومصالحهم إلى الأبد, قال تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ)[١].

ألا وإن هذه السمة تُظهر مدى يسر الإسلام وسماحته وملائمته للفطرة السليمة في كل زمان ومكان, بعيداً عن مبالغة بعض المتشددين الذين ظنوا أن تشددهم يخدم الدين في شيء, فقدَّموا خطاباً جامداً أضرَّ بروح الإسلام وقيمه, فوقعوا وأوقعوا غيرهم في الحرج والضيق, وهو ما نفاه الله ورسوله عن هذا الدين: (وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ)[٢], بل كان الأخذ بالأيسر من منهج الداعية الأعظم صلى الله عليه وسلم عن عائشة- رضى الله عنها- قالت: (مَا خُيِّرَ النَّبيُ ﷺ بَيْنَ أَمْرَينِ إلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكنْ إثماً, فَإذا كَانَ الإثمُ كَانَ أَبعَدَهُمَا منه, واللهِ مَا انتَقَمَ لِنفسِهِ في شيء يُؤتَى إليه قَط حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ فَينتَقِمُ للهِ)[٣].

وعلى الجانب الآخر بعيداً عن المتساهلين تساهلاً لا يستند إلى دليل يمنحه المصلحة والتيسير, وهذه الخاصية من خصائص التشريع الإسلامي تبين الفهم الصحيح لمظاهر التيسير في الخطاب الديني, وتضع حداً للتطرف عند الفريقين (المتشددين والمتساهلين) وتظهر نعمة الله على عباده, بهذه الشريعة السمحة التي لا تفريط منها ولا إفراط, قال ﷺ: (إنِّ الدِّينَ يُسْرُ, وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدُ إلَّا غَلَبَهُ)[٤].

---

(١) سورة الحج من الآية ٧٨.

(٢) السابق نفسه من الآية نفسها.

(٣) أخرجه الإمام البخاري (٤٥٦/٥) رقم (٦٧٨٦) كتاب الحدود باب إقامة الحدود والإنتقام لحرمات الله.

(٤) أخرجه الإمام البخاري (١٦/١) كتاب الإيمان رقم (٦٥١٢) باب الرقاق..

ويجب ألا يفهم التيسير ورفع الحرج على أنـه إطـلاق للإنسان من كل قيد فيتوسع فيه حتى يُعفى من التكاليف, وإنما يجب أن يفهمه الفهم الصحيح وهـو أنـه رحمـة مـن الله بعبـاده فلـم يكلفهـم بمـا لا يطيقـون, وهـو أيضـا يسـد الزرائع, ويقطع الطريـق علـى المتهاونين حيث لابد من الامتثال لأمر الله في أداء التكاليف, وبذلك يتحقق الاتيان بالمأمور به, ولكن بالكيفية التي لا مشقة فيهـا, فالتيسير إذن يلغـي عذر من يحـاول التضـييع ويقطـع أسـباب الـتملص والاهمال ولا يدع للتهاون مجالاً, وأمامه الرخصة بدلا من العزيمة.

عن عائشة– رضي الله عنهـا– قالـت: (أُتِـى الرَّسُولُ ﷺ بِصَبِي يَرضَـعُ فَبَالَ فِي حِجْرِهِ فَدَعَا بِمَـاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْـهِ)[١], فالحديث يحمل واحدة من مظاهر التيسير في الطهارة والصلاة وهو العفو عن يسير النجاسة وما يعسر الاحتراز منـه, ونُقِلَ عن الإمـام الحطـابي –رحمـه الله– قولـه: "يعفـى عـن بـول الصـبي بالنسبة للمرضع, لما روى من حديث أم المـؤمنين عائشـة –رضـي الله عنهـا– ورفعاً للحرج والمشقة, وأخذاً بمظاهر التيسير في الإسلام"[٢].

ومن ذلك أيضا أن الإسلام أباح إخراج الزكاة قبل حُلول الحَول إذا كـان فـي ذلـك مصلحة للفقير, وذلـك مـن بـاب رفـع الحـرج والأخذ بمظـاهر التيسير, عن عائشة –رضي الله عنهـا– قالت: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: لَا زَكَاةَ فِـي مَالٍ حَتَّـى يَحُولَ عَليهِ الحَوْلُ)[٣], ولكن رفعاً للحـرج يجوز لصاحبها أن يقدمها

(١) أخرجه الإمام مسلم (١٩٣/٣) كتاب الطهارة.

(٢) رفـع الحـرج فـي الشريعة الإسـلامية للأستاذ عدنان محمد جمعة صـ٤٤, ط دار الإمـام البخـاري دمشـق, والـرخص للفقيــه د محمـد الشـريف الـدحموني صــ٤٢٢ ومـا بعـدها ط مؤسسـات عبـد الكـريم عبـد الله, تـونس, وتبيـين المسـالك لعبـد العزيـز آل مبـارك (جــ١ صـ١٣٤) ط دار الغرب الإسلامي.

(٣) أخرجه الإمام ابن ماجه رقم (١٨٨/١) كتاب الزكـاة, وصححه البخـاري فـي شرح البـاري (١٩٤/٢).

عن حولها إذا رأى فيها سداً لحاجة الفقراء, روى: (أَنَّ العَباسَ -رضي اللهُ عَنه- سَأَلَ رَسولَ اللهِ -ﷺ- فِي تَعجيلِ صَدَقَتِهِ قَبلَ أَنْ تَحِلَّ فَرَخَصَ لَهُ)(١), وذلك أخذا بمظاهر التيسير.

ولقد تأكَّد في الدين قضية رفع الحرج بما لا يدع مجالاً للشك أو محلاً للنقد, وأصبح من الأمور القاطعة التي يجب العمل بها والنزول على حكمها, وتوجيه الخطاب الديني إلى ترسيخها, والسير على دربها, فالدين لا يُؤخذ بالأهواء والرغبات والميول, حتى تتوحد الأمة على منهج الاتباع, ولقد ذكر صاحب التحرير والتنوير في ذلك مقولة عزاها إلى الإمام الشاطبي -رحمه الله- وفيها: "إن الأدلة على رفع الحرج عن هذه الأمة بلغت مبلغ القطع من كتاب وسنة وإجماع"(٢), وقال الإمام ابن الأثير -رحمه الله: "اليسر ضد العسر, أراد أنه سهل سمح قليل التشديد"(٣), ومن ذلك قوله تعالى: (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ)(٤), والآية عامة في كل قضايا الإسلام وليس في شيء خاص, وظاهر اليسر والعسر العموم في جميع الأحوال الدنيوية والأخروية(٥).

---

(١) أخرجه الإمام أبو داود رقم (٤٣/١), كتاب الزكاة, وأخرجه الإمام ابن ماجه (٧٨/٢) باب الصدقة.

(٢) نقلاً عن صاحب تفسير التحرير والتنوير "الإمام بن عاشور" (حـ١صـ٣٤٠) ط الدار التونسية للنشر.

(٣) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (جـ٥ صـ٢٩٥) ط القاهرة .

(٤) سورة البقرة من الآية ١٨٥.

(٥) تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبى (جـ٢ صـ٣٠١) ط مؤسسة مناهل العرفان بيروت.

ومن هنا قرر الفقهاء: "أن ما عجز عن أدائه سقط وجوبه" وبهذا صرح شيخ الإسلام دين تيمية –رحمه الله– فقال: "إن الواجبات تسقط بالعجز عن أدائها"[١], وبهذا المدلول جاءت الأحاديث النبوية توضح منهج الإسلام وتؤكده, فمن ذلك قوله ﷺ: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ, وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ, فَسَدِّدوا وَقَارِبوا وَأَبْشِروا وَاسْتَعِينوا بالغدوةِ والرَّوحَةِ وَشَيء مِن الدُّلْجَة)[٢], والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق, إلا عجز وانقطع فيغلب, وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة, بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل, فالمطلوب: السداد وهو: التزام الصواب من غير إفراط ولا تفريط.

عن عائشة– رضي الله عنها– قالت: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَرَهُم أَمَرَهُم مِنَ الأَعْمَالِ بِمَا يطِيقُونَ, قَالوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيئَتِكَ يَا رَسُولَ الله, إِنَّ اللهَ قَد غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ[٣], فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الغَضَبُ فِي وَجْهِهِ, ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ أَتْقَاكم وَأَعْلَمكُم بِاللهِ أَنَا)[٤], وفى رواية: (عَلَيْكُم بِمَا تطِيقُونَ فَواللهِ لَا يَملُ اللهُ حَتَّى تَملُّوا)[٥], فليس للمسلم أن يُشدد على نفسه بما لا يتحمله من العبادة, ولا أن يُضيِّق على نفسه في أمور الدنيا بزعم التقرب إلى الله تعالى فليس التضييق على النفس في الحلال من القربة إلى

([١]) القواعد والضوابط الفقهية عند ابن تيمية صـ٢٦٨ ط مكتبة الحاكم بيروت.

([٢]) أخرجه الإمام البخاري في فتح الباري (١٦/١) كتاب الإيمان من طريق أبى هريرة.

([٣]) يريدون بذلك قول الحق سبحانه: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً) سورة الفتح الآية ٢.

([٤]) أخرجه الإمام البخاري رقم (٢٠) كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ: (أنا أعلمكم بالله), وأن المعرفة فعل القلب لقوله تعالى: (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم).

([٥]) أخرجه الإمام البخاري رقم (٤٣) كتاب الإيمان باب أحب الدين إلى الله عز وجل أدومه.

الله تعالى والزهد[١], لماذا؟ لأن وجهة الإسلام العامة هي التيسير, فمن يبغى الشدة والتعنت إنما يعاند روح الإسلام, والإسلام من هذا بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب, وعلى هذا الأساس لابد أن يكون توجيه الخطاب الديني.

وأما عن تأثير هذه السمة في الخطاب الديني فيمكن القول اضافة إلى ما سبق أن هذه هي النظرة الحقيقة للخطاب الديني في الدعوة الإسلامية بشريعتها الميسَّرة, التي لا تفريط فيها لا إفراط, والإسلام بهذا المنهج يشق طريقاً سهلاً ومُيسَّراً أمام دعاته ليُبلِّغوا تعاليمه ومنهجه إلى الناس كافة, دون مشقة على النفس, أو تكليفها فوق ما لا تطيق, فليس في الإسلام هذا التشدد الذي يُؤدي إلى الضيق, ثمَّ يُولِّد الإنفجار, فالنفس البشرية بطبيعتها تميل إلى اليسر وعدم الحرج, والنبي ﷺ لما سأل الصحابة –رضوان الله عليهم–: ما تعدون الحرج؟ قالوا الضيق, وهو ما سألت عنه السيدة عائشة –رضي الله عنها– رسول الله ﷺ وكان نفس الجواب, إذن فهي قضية مشتركة تتماشى مع فطرة النفس البشرية وطبيعتها, فالإتيان بالرخص أمر يفتح أبواب الآفاق الرحبة أمام الدعاة إلى الله –تعالى– في ظل خطاب ديني حقيقي من شأنه أن يُوصف بالإيجابية في ترسيخ قيم الإسلام ومبادئه.

كما أنه لابد من تقديم خطاب ديني يتصف أسلوبه بصفة السهولة واليُسر, فلابد أن يكون الأسلوب مُيسَّراً ومفهوماً, بعيداً عن الغموض الذي من شأنه أن يُشين هذا الجطاب الديني, ويجعله عند المُتلقِّي في صورة مُشوَّشة لا تُزيده إلا لبْسَاً, فالأصل في الخطاب الديني أن يكون واضحاً جليَّاً, لماذا؟ لأنه يُستقى من منبعه الأصيل وهو القرآن الكريم, وهو منبع موصوف بسهولة أسلوبه ويُسره, ولهذ ذُكر فيه ما يدل على هذا في سورة واحدة أربع مرَّات

([١]) العبادة في الإسلام د يوسف القرضاوى صـ١٨٨ ط مكتبة وهبة الطبعة ١٥عام ١٩٨٥م.

مُتكرِّة, تَكراراً يُفيد القضية موضع الحدث القرآني, قال تعالى: (وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ)[١], فالتَّشدق في توجيه الفكر الديني يُولِّد خطاباً باهتاً لا لون له ولا تأثير, ومَن يقف عند حديث رسول الله ﷺ يجد أنه ذمَّ هؤلاء وجعلهم أبعد الناس عنه يوم القيامة, فقال النبي ﷺ: (إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً فِي الآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقَاً, وإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الآخِرَةِ أَسْوَؤُكُمْ أَخْلاقاً الثَّرْثَارونَ[٢] الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ[٣])[٤], وفي رواية: (قَالوا يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارونَ والْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ[٥]؟ قَالَ: "الْمُتَكَبِّرونَ")[٦], ومن هذا المنطلق فينبغي على الدعاة إلى الله تعالى من تقديم خطاب ديني واضح الجملة, سهل العبارة, بيِّن المقصد, بعيداً عن التَّكلف, الإيجاز فيه ملحوظ, يفي بالغرض والمطلوب من أقرب أسلوب, روي أن عمرو بن العاص –رضي الله عنه– قال يوماً –وقام رجل فأكثر القول– فقال عمرو: "لَوْ قَصَدَ في قوله لكان خيراً له" سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَقَدْ رَأَيْتُ أَوْ أُمِرْتُ أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي القَوْلِ, فإِنَّ الجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ)[٧].

---

(١) سورة القمر الآيات ١٧،٢٢،٣٢،٤٠.

(٢) الثرثار: بثاءين مُثَلَّثتين مفتوحتين: هو الكثير الكلام تكلُّفاً.

(٣) المتشدق: هو المتكلم بمثل شدقه تفاصحاً, وتعظيماً لكلامه.

(٤) الترغيب والترهيب للإمام الحافظ المنذري رقم (٣٩٤٠) فصل الترغيب في الخلق الحسن وفضله والترهيب من الخلق السيئ وذمه (٣/٣٦٣) ط دار الحديث بالقاهرة.

(٥) المتفيهق: أصله من الفهق, وهو: الامتلاء, وهو بمعنى المتشدق, لأنه الذي يملأ فمه بالكلام, ويتوسع فيه إظهاراً لفصاحته وفضله, واستعلاء على غيره, ولهذا فسَّره النبي ﷺ بالمتكبر.

(٦) الترغيب والترهيب للإمام الحافظ المنذري رقم (٣٩٤٠) فصل الترغيب في الخلق الحسن وفضله والترهيب من الخلق السيئ وذمه (٣/٣٦٣) ط دار الحديث بالقاهرة.

(٧) أخرجه الإمام أبو داود رقم (٥٠٠٨) كتاب الأدب باب ما جاء في المتشدِّق في الكلام.

فلابد من خطاب ديني البيان فيه واضح, حتى يستطيع أن يجذب المتلقي, ليعيش بين التأثير والتأثر, عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنه– قال: قدم رجلان من المشرق, فخطبا, فعجبا الناس –يعني: لبيانهما– فقال رسول الله ﷺ: (إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرَاً) أو (إنَّ بَعْضَ الْبَيَان لَسِحْرٌ)[1], ولعلَّ الأمر اليوم واضح جلي فالخطاب الديني جطاب فيه اطناب ممل, واستطراد غير مقبول, تشمئزه الآذان, ولا تفهمه العقول, يرفض المدعو من خلاله شخص الداعي فيُدبر منه غير مُقبل, ولما لا؟ وللقلوب إدبار وإقبال, فهي مقبلة على ما تُحب وتعشق, ومدبرة عن كل تشمئز وتكره.

عن عبد الله بن ثابت –رضي الله عنه– قال: حدثني صخر بن عبد الله عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرَاً, وإنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلاً, وإنَّ مِنَ الشِّعْرِ حُككْمَاً, وإنَّ مِنَ القَوْلِ عِيَالاً)[2], فقال صعصعة بن صوحان: صدق رسول الله ﷺ أما قوله: "إنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرَاً" فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحُجج من صاحب الحق, فيسحر القوم ببيانه فيذهب الحق, وأما قوله: "وإنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلاً" فيتكلَف العالم إلى علمه ما لا يعلم فيجهله ذلك, وأما قوله: "وإنَّ مِنَ الشِّعْرِ حُكْمَاً" فهي هذه المواعظ والأمثال التي يتعظ بها الناس, وأما قوله: "وإنَّ مِنَ القَوْلِ عِيَالاً" فعرضُكَ كلامك وحديثك على مَن ليس من شأنه ولا يُريده, فهل من مُدَّكر؟

---

(١) أخرجه الإمام أبو داود رقم (٥٠٠٧) كتاب الأدب باب ما جاء في المتشدِّق في الكلام.

(٢) أخرجه الإمام أبو داود رقم (٥٠١٢) كتاب الأدب باب ما جاء في الشعر.

المبحث السابع

مراعاة سمة الوضوح في تجديد الفكر الديني

إن خصيصة الوضوح هي واحدة من الخصائص العامة للشريعة الإسلامية[١], يستوي في ذلك ما يتعلق بالأصول والقواعد, أو بالمصادر والمنابع, أم بالأهداف والغايات أم بالمناهج والوسائل, ومن هنا مُيِّزت دعوة الإسلام عن غيرها من مختلف الدعوات التي عاصرتها وزامنتها على مر العصور والدهور, فمثلا: وضوح الأصول والقواعد بصفة العموم للجميع- الصغير والكبير والذكر والأنثى والعالم والأمي- فإن كانت الدعوات السابقة على الدعوة الإسلامية بيئية أو محلية[٢], إلا أنها كانت بمثابة التمهيد للدعوة الخاتمة والرسالة المكمِّلة لها, فبلغت الإنسانية رشدها وكمالها, فراعت هذه الدعوة شأن سابقتها من رسالات.

ومن هنا رسخت في قلب كل مؤمن, جلية في فكره, مؤثرة في حياته, قال تعالى: (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ)[٣], وفي الوقت ذاته يقابل هذا الوضوح غموض

---

(١) يُنظر في هذا: الخصائص العامة للإسلام د يوسف القرضاوى صـ١٦٩ ط مكتبة وهبة, والمدخل إلى علم الدعوة د محمد أبو الفتح البيانوني صـ١٢٥ ط مؤسسة الرسالة.

(٢) يعنى: أن دعوة كل نبي كانت خاصة بقومه فقط وجاء ذلك واضحاً في خطاباتهم لأقوامهم بلفظ الخصوص: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) أما خطاب النبي ﷺ فجاء بلفظ العموم, وعموم لفظه من عموم رسالته وعموم رسالته من صلاحيتها ووضوحها قال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء الآية ١٠٧, وقال ﷺ: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا اله تفلحوا).

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٨.

في شتى الدعوات التي حادت عن منهج الحق, فهي غامضة ومختلفة ومتناقضة ويهدم بعضها بعضاً وتتصارع فيما بينها وتتناصر لتبسط نفوذها وسيطرتها على غيرها, وشتان بين ما شرعه الله تعالى وبين ما وصفه البشر, (وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ)[١].

فكانت مثار شك وارتياب لأعوانهم, إلا أن دوافع الإنكار المكنون في دخيلتهم جعلتهم يعرفون الحق ولا يتبعونه ويرون الهدى ويعاندونه, يُريدون أن يُطفؤا نور الله بأفواههم, وأنى لهم هذا؟ والله متم لنوره ولو كرهوا.

كما نلمس وضوح الشعائر التعبدية التي نادت بها الشريعة الإسلامية في أركانها وشعائرها, من صلاة وزكاة وصوم وحج... إلخ, فهي معلومة وجليَّة للخاصة والعامة, وكذلك الأصول الأخلاقية والمعالم السلوكية والآداب التعبدية التي تنظم حياة الفرد والأسرة والمجتمع, مما يكشف عن شخصية المسلم السوي والأسرة المثالية والمجتمع الفاضل, كما لا يغيب عنا وضوح مصادر الدعوة, فهي معلومة لكل مسلم في كل زمان ومكان, وتزداد الدعوة وضوحاً بوضوح أهدافها وغاياتها, ومناهجها وسبلها ووسائلها وأساليبها.

ومن ثَمَّ يمكن القول أن خصيصة الوضوح لها أثر كبير في تجديد الفكر الديني، لو أن الدعاة إلى الله تعالى عكسوا هذا السمة على خطابهم الديني, فكل ما احتوته دعوة الإسلام من أصول وأركان ومقومات ومناهج من وسائل وأهداف وغايات واضحة للفرد المسلم وللأسرة المسلمة وللمجتمع المسلم, ولابد للدعاة من توجيه خطابهم الديني على هذا النهج الواضح, الذي لا لبس فيه ولا غموض, بل إسقاط هذا الوضوح بكل معانيه على أرض الواقع, فلابد من خطاب ديني يجهر الداعية من خلاله بفكرته في وضوح وقوَّة, ولا

---

(١) سورة فاطر الآيتان ١٩- ٢٠.

يطلب رضا الناس على حساب دعوته وفكرته التي يُؤمن بها, فالناس وإرضائهم غاية لا تُدرك, وإن استطاع واحد فعل هذا فقد نافق, ولكن رضا الله تعالى ورسوله هو الغاية المنشودة, والمراد المقصود, ولن يكون ذلك إلا باتباع ما أمرت به الشريعة الإسلامية واجتناب ما نهت عنه, وهى ضوابط وموازين تحقق قِيم الدعوة الإسلامية ومبادئها من الإخاء والعدل والمساواة بين البشر, ونشر قيم السلام في الإسلام وتعميمها, وردع الشر واقتلاع جذوره, ومنع الفرقة والتباغض, وصون الحقوق الإنسانية..الخ.

المبحث الثـامـن

مراعاة سمة الإيجابية في تجديد الفكر الديني

إن سمة الإيجابيـة مـن الخصـائص البـارزة فـي التصـور الإسـلامي[١], ويُعنـى بهـا: الإيجابيــة الفاعلــة فــي علاقــة الحــق ســبحانه بــالكون والحيــاة والإنسان, والإيجابية الفاعلة كذلك من ناحيـة الإنسان ذاتـه في حدود المجال الإنسـاني, وإن الصفات الإلـهية ليست صفات سلبية والكمـال الإلـهي لـيس فـي الصورة السلبية التي جالت في تصور أرسطو[٢], وليست مقصورة على بعض جوانب الخلق والتدبير كما تصور الفرس فـي صفات هرمز إلـه النـور والخيـر,

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشيخ سيد قطب صـ١٤٦ ط دار الشروق.

(٢) مـذهب أرسطو فـي الإلـه: أنـه كـائن أزلـي أبـدي, مطلق الكمـال, لا أول لـه ولا آخـر ولا عمـل لـه ولا إرادة منـذ كـان العمـل طلبـاً لشـيء والله غنـى عن كل الطلـب وقد كانـت الإرادة اختيـاراً بـين أمـرين, والله قد اجتمـع عنـده الأصـلح الأفضـل مـن كـل كمـال فـلا حاجـة إلـى الإختيـار إلى صالح وغير صالح ولا إلي فاضل ومفضول, وليس مما يناسب الإلـه –فـي رأى أرسطو– أن يبتدىء العمل في زمـان, لأنـه أبـدي سرمدي لا يطرأ عليـه طـارئ يـدعوه إلـى العمل, فالإله الكامل المطلق الكامل, لا يعنيـه أن يخلـق العـالم, أو يخلـق مادتـه الأولـى...." عـن كتـاب " حقـائق الإسـلام وأباطيـل خصـومه " للأسـتاذ عبـاس العقـاد صـ٣٣– ٤٤ ط بيروت.

وصفات أهرمان إله الظلام والشر واختصاصاته[١], وليست محدودة بدرجة من درجات الخلق كتصور أفلوطين[٢].

وليست محدودة بحدود شعب كتصورات بنى إسرائيل[٣], وليست مختلطة أو متلبسة بإرادة كينونة أخرى كبعض تصورات الفرق المسيحية[٤],

---

(١) الفُرس: كانوا يعتقدون بالثنوية ويجعلون للخير إلها هو: "هرمز" وللشر إلها هو: "أهرمان" وهما أخوان مولودان لإله قديم اسمه: "زروان", وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين, وأن هرمز طفق في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة, فلما أدرك ذلك "أهرمان" ثار, وثارت معه خلائق الظلام- وهى شياطين الشر والفساد- فأحبطت سعى هرمز, وملأت الكون بالخبائث والأرزاء... إلخ (واحتدمت المعركة بينهما وما تزال), عن كتاب "الله" للأستاذ عباس العقاد صـ١٨٨ ط: بيروت.

(٢) أما أفلوطين: الذي عاش في السنوات الأولى من القرن الثالث للميلاد, فإنه يغلو فيما يراه تنزيها لإلهه الأحد, حتى يتجاوز كل معقول, فإذا كان أرسطو يرى: أن من كمال الإله ألا يشعر بغير ذاته, وألا يفكر إلا في ذاته, لماذا؟ لأنه لا يفكر إلا في أشرف الموجودات, وذاته هي أشرف الموجودات, وأنه لا يعلم الموجودات لأنها أقل من أن يعلمها, فإذا كان تنزيه أرسطو وقف به عند هذا الحد فإن أفلوطين: راح يزعم أن من كمال إلهه الأحد, أنه لا يشعر بذاته كذلك, لماذا؟ لأنه يتنزه عن ذلك الشعور ومن ثم ينحصر اختصاص الإله عند أفلوطين في خلق العقل, وأن العقل خلق الروح وأن الروح خلقت ما دونها من الموجودات على الترتيب الذي ينحدر طوراً دون طور إلى عالم المادة و الفساد. عن كتاب "الله" للأستاذ عباس العقاد صـ١٨٨ ط بيروت.

(٣) أما إله بنى إسرائيل "يهوا" كما ترسمه تصوراتهم المنحرفة: فهو إله إسرائيل الخاص, الذي يغار من عباده شعب اسرائيل للآلهة الغريبة, فيثور ويغضب, ويحطم وينتقم, حتى إذا عاد الشعب إليه رضي واستراح وكف عن النقمة والتدمير, وندم على ما فعل بشعبه المختار. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشيخ سيد قطب ١٤٨ ط دار الشروق.

(٤) أما التصورات الكنيسية عن طبيعة المسيح وإرادته وتلبسهما باللاهوتية فهي تجعل إرادة الله متلبسة أو متجسمة في إرادة المسيح ..إلى آخر هذا الركام. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشيخ سيد قطب صـ٢٧- ٣٢ ط دار الشروق.

وليست معدومة على الاطلاق كما تقول المذاهب المادية التي تنفى وجود الإله الحي..إلى أخر هذا الركام[١], ولعل بعد هذا الإيجاز -غير المخل- يجب أن نبين دور هذه الخاصية "الإيجابية" في الشريعة الإسلامية وأثرها في تجديد الفكر الديني, حتى يتضح لنا الفارق ونرى أين الثابت وأين الشتات؟

إن الإنسان في الشريعة الإسلامية يتعامل مع إله موجود له كل صفات الجمال والكمال, وهو كامل الإيجابية والفاعلية, إليه يرجع الأمر كله, ويحفل القرآن بتقرير هذه الحقيقة الأساسية الكبيرة في التصور الإسلامي بكل صورها وأشكالها ويهتم بعرض مظاهرها في كل جانب من جوانب الكون والحياة وفى كل صورة من صورها المتجددة التي لا تُحصى, قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) [٢], وقال تعالى: (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)[٣], وقال:(وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ)[٤] , وقال تعالى: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)[٥], إلى غير ذلك من الأدلة القرآنية التي تبرهن على هذه الحقيقة وتؤكد مدلولها.

---

(١) يُنظر في هذا: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشيخ سيد قطب صـ٦٠- ٦٩ ط دار الشروق.

(٢) سورة الأعراف من الآية ٥٤.

(٣) سورة فاطر من الآية ٤٤.

(٤) سورة الأنعام من الآية ١٨.

(٥) سورة المجادلة من ٧.

ولم تكن السنة النبوية بمنأى عن هذه الحقيقة الثابتة, بل جاءت أحاديث الهدى النبوي تترا تبين هذا وتوضحه, وتثبت وجود إله عالم مطلع يرى الأفعال والأقوال, مطلع على أفعال العبد في كل أحواله, وجاءت أم المؤمنين عائشة– رضي الله عنها– الفقيهة الملهَمة– لتثبت هذه الحقيقة, فنالت من فيض علم المعلم الأول للبشرية ﷺ فروى البخاري بسند صحيح عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: (إِذَا أَعَجَبَكَ حُسْنُ عَمَلِ امرِئٍ فَقُل: (وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ أَحَدٌ)[١].

إذن هناك فرق كبير بين الإنسان الذي يتصور أن إلهه لا يحفل به, ولا يحس بوجوده, أو لا يعلم بوجوده أصلاً, وبين الإنسان يحس ويعلم أن الله هو خالقه ورازقه ومالك أمره كله في الدنيا والآخرة, بل إنك إذا ذهبت "في لفتة بسيطة" تفك هذه الحروف التي يتركب منها لفظ الجلالة وحده لوجده يملك الكون كله, يعني: أن اللفظ يتركب من: همزة, ولامين, وهاء, وهذه الحروف تُكوِّن لفظ الجلالة: "الله" وبحذف الهمزة التي جيئ بها للنطق بالساكن يبقى اللفظ "لله" اقرأ في القرآن الكريم أكثر من آية: (لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ)[٢] أو: (وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ)[٣], ثمَّ احذف اللام الثانية ليبقى اللفظ: "له" فاقرأ آيه: (لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ)[٤], أو: (لَّهُۥ مُلۡكُ

([١]) أخرجه الإمام البخاري رقم (٧٥٣١) كتاب التوحيد باب قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) عنوان الباب عن عائشة رضي الله عنها: (من حدثك أن محمداً كتم شيئاً).

([٢]) سورة البقرة من الآية ٢٨٤, وسورة النساء من الآيتين ١٣١, ١٣٢.

([٣]) سورة آل عمران من الآية ١٨٩, وسورة الجاثية من الآية ٢٧.

([٤]) سورة الشورى من الآية ٥٣.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ)[١], وأخيراً احذف اللام الثانية لتبقى:"الهاء" وهو في اللغة لا يُنطق وحده ولذلك هو حرف استدراك ولا يستدرك إلا الواو, وبها يكون اللفظ: "هو" واقرأ بعدها إن شئت قوله تعالى: (هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ)[٢].

وبالتالي فإن لهذا التصور أثره الواضح في الخطاب الديني, فهو ينعكس على الداعية في جميع أقواله وأحواله وتصرفاته, ومدى ثقته المطلقة بالقدرة الإلهية التي لا حدود لها, التي لا يعزب عنها مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء, المطلعة على كل الأفعال والأقوال, مما ينعكس بمردوده الإيجابي في تطبيق منهج التجديد للخطاب الديني وفق منهج منضبط بضوابط الشارع الحكيم, وهنا يتضح لنا جليَّاً مدى تأثير هذه السمة الإيجابية في تجديد الخطاب الديني.

فينبغي أن يكون الخطاب الديني ايجابي في جميع مناحي الحياة, وأن يكون نافعاً للبشرية, ولا ينكفئ على نفسه, ليعيش بين شخصيَّاته وذكرياته وانتصاراته وانكساراته, بل لابد أن يكون مساهماً في المجتمع بإيجابية, مراعياً أحوال البلاد والعباد, بعيداً بالداعية عن الدور السلبي والرُّوتيني, في ظل التَّمسك بشعارات تتردد دون تجديد للفكر الديني أو ابداع فيه, وعدم تقديم ما يخدم الإنسانية وما ينقذها من براثن الجهل والغواية والضلالة, وعدم تقديم الحلول والمقترحات, من أجل تحقيق تنمية مستدامة ننطلق من خلالها إلى الأمام في ظل عدالة اجتماعية, بالحث على ما يُفيد وينفع الأمة بالعمل الدَّؤب, للقضاء على نسبة الكثرة الكاثرة للعاطلين عن العمل والباحثين عن المبرِّرات.

([١]) سورة الحديد من الآية ٢, ومن الآية ٦.

([٢]) سورة الحديد الآية ٣.

فلابد من انفتاح الداعية على مجتمعه ومُخالطة المدعوِّيين مُخالطة إيجابية, ومشاركتهم في كل ما يطرأ عليهم من أمور في حالتي الفرح والطرح, ومن شأن هذا أن يُعينه على فهم الواقع على نحو يجعله قادراً على التوجيه والتقويم, والإصلاح والتغيير, ومن هذا المنطلق لابد من توجيه خطاب ديني يقوم على أساس من تقديم الحلول والبدائل الإسلامية لكل الظواهر المتفشية في العالم, وفي الوقت ذاته لابد من تقديم خطاب ديني يدعو إلى الاهتمام بالبيئة والمحافظة عليها, واستغلال الموارد الطبيعية وحسن ترشيدها, من أجل وجود مجتمع فاضل في ظل خطاب ديني يفي باحتياجات أفراده, دون المصادرة عليه أو العبث بمقدِّراته.

وليس أدل على هذا من الآيات الآمرة بصلاة الجمعة, قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ)[1].

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (كَانَ النَّاسُ مهَنَة أَنفُسِهِم, وَكَانُوا إِذَا رَاحُوا إِلى الجُمُعَةِ رَاحُوا فِي هَيئَتِهِم, فَقِيلَ لَهُم: لَو اغْتَسَلتُم)[2], فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتى في يوم الجمعة, بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة, ثم طهارة ونظافة وتطهير, ثم السعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة وترك البيع والشراء وما شابه من مشاغل الحياة, ثم انتشار في الأرض وابتغاء

---

(١) سورة الجمعة الآيتان ٩- ١٠.

(٢) أخرجه الإمام البخاري رقم (٩٠٣) كتاب الجمعة باب وقت الجمعة إذا زالت الشمس.

للرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيراً في كل حال فهو أساس الفلاح, وهذه هي الإيجابية الفعَّالة التي بإسقاطها على أرض الواقع من شأنها أن تخدم قضية التجديد في الفكر الديني للوصول إلى الخطاب المنشود.

المبحث التـاسـع

مراعاة سمة الجمع بين الأصالة والمعاصرة في تجديد الفكر الديني

إن التوازن بين الثبات والتطور, أو الثبات والمرونـة من أهم خصائص الشريعة الإسلامية[١], وهي تجمع بينهما في تناسق مبدع, واضعة لكل منهما موضعه الصحيح, الثبات فيما يجب أن يخلد ويبقى, والمرونـة فيما ينبغي أن يتغير ويتطور, وهذه الخصية البارزة لرسالة الإسلام لا تُوجَد في أي شريعة سماوية ولا وضعية, فالسماوية- عادة- تمثل الثبات بل الجمود أحياناً, وأما الشرائع الوضعية فهي تمثل -عادة- المرونـة المطلقة, ولهذا نراها في تغير دائم ولا تستقر على حال[٢].

والمتأمل في السنة النبوية يجدها حافلة بشتى الأمثلة والدلائل التي يتمثل فيها الثبات والمرونـة جنباً إلى جنب, وتستطيع أن نحدد مجال الثبات ومجال المرونـة في شريعة الإسلام, ورسالته الشاملة الخالدة, فنقول إنـه الثبات على الأهداف والغايات, والمرونـة في الوسائل والأساليب, إنـه الثبات

---

(١) يُنظر في هذا: الدعوة الإسلامية د أحمد غلوش صـ٢١٨ ط مؤسسة الرسالة, والمدخل إلى علم الدعوة د محمد أبو الفتح البيانوني صـ١٢٧ ط مؤسسة الرسالة, المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية د عبد الكريم زيدان صـ٣٩ وما بعدها ط بغداد ١٩٨١م.

(٢) يلاحظ أن الشرائع السماوية قبل الإسلام كانت محلية لزمن موقوت, ولقوم مخصوصين, فلم تكن لحاجة إلى المرونـة, لماذا؟ لأن ليس من خصائصها الخلود والبقاء, فتحتاج إلى هذه الخاصية حتى تكسبها صلاحيتها وعمومها لكل وقت وحين, ولذلك كان كل نبي من الأنبياء السابقين-عليهم السلام- يأتي إلى قومه خاصة والأمثلة في القرآن من هذا القبيل أكثر من أن تعد أو تحصى, وهذا بخلاف شريعة الإسلام الذي بعث رسوله إلى الناس كافة, وختم بـه النبيون, ولذلك فكانت هذه الخصيصة إحدى سمات هذا التصور الإسلامي ومميزاته على غيره من الشرائع السابقة, أو الدعوات الوضعية المنحرفة عن منهج الله. الخصائص العامة للإسلام د يوسف القرضاوي صـ١٩٥ ط مكتبة وهبة.

على الأصول والكيان والمرونـة في الفروع والجزيئات, إنـه الثبات على القيم الدينية والأخلاقية, والمرونة في الشئون الدينية والعلمية.

فمثلاً يتمثل الثبات في موقفه ﷺ من المرأة القرشية "المخزومية" التي سرقت, ومحاولة قريش تخليصها من العقوبة عن طريق الوساطة والشفاعة, وتوسلهم إلى الرسول ﷺ بحِبه وابن حِبه أسامة بن زيد –رضي الله عنه, وما ترتب على ذلك من غضب النبي ﷺ وقيامه بينهم خطيباً, يلقى كلمات تحمل معاني الردع والترهيب, عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: (إنَّ قُرَيشَاً أَهَمَّتهُم المَرأَةُ المَخْزُومِيَّةُ الَّتي سَرقَتْ, فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ أَو مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيهِ إلَّا أُسَامَة بن زيدٍ حِب رَسُول اللهِ ﷺ فَكَلَّمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَتَشْفَعُ في حَدٍ مِنْ حُدُودِ اللهِ, ثُمَّ قَامَ خَطِيباً, قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُم أَنَّهُم كَانوا إذَا سَرقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإذَا سَرقَ الضَّعِيفُ فِيهِم أَقَامُوا عَليهِ الحَدَّ, وأَيمُ اللهِ لَو أنَّ فَاطِمَةَ بنت مُحَمَّد سَرقَت لَقَطَعَ مُحَمَّدُ يَدَهَا)[١], إنه الثبات على الموقف مهما كانت التحديات, ورفض للوساطة والشفاعة فيما يُخالف الأصل.

وتتمثل المرونة في قول النبي ﷺ: (لَا تُقْطَعُ الأَيدي فِي الغَزوِ)[٢], لماذا؟ ذلك رعاية لحال الحرب, خشية أن يفتن الجاني, ويلحق بالكفار, ومثال ذلك قول النبي ﷺ: (ادْرَأوا الحُدُودَ مَا استَطَعتُم وَمَن وَجَدتُم لَهُ مَخْرَجَاً فَخَلو سَبِيلَهُ, وَلأَن يُخْطِئ الإمَامُ في العَفو, خَيرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئ في العُقُوبَةِ)[٣], إنه مراعاة مقتضى الحال, وكما قيل: لكل مقام مقال.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري رقم (٦٧٨٨) كتاب الحدود باب كراهية الشفاعة.

(٢) أخرجه الإمام أبو داود رقم (١٤٢/٣) كتاب السرقة.

(٣) أخرجه الإمام النسائي في سننه (١٥٠/٢) كتاب الحدود.

ويتمثل الثبات: في إنكار النبي ﷺ على مَن اشترط شرطاً مخالفاً لحكم الشرع في عَقد, عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (جَاءَتْنِي بَرِيَرَة[١] فَقَالَتْ: كَاتَبَتُ[٢] أَهلِي عَلى تِسع أواقٍ فِي كُلِّ عَامٍ أُوقِيَّة فَأعِينينِي, فَقَالَتْ: إنْ أَحَبُوا أَنْ أعدَّهَا لهُم وَيَكونُ ولاؤُك لي فَعَلتُ فَذَهَبَت بَريرةُ إلى أهلِهَا فقَالَت لَهُم, فَأبوا عَليهَا, فَجَاءَت مِن عِندِهم وَرَسُول اللهِ ﷺ جَالسٌ, فقَالَت: إنِّي قَد عَرَضْتُ ذَلكَ عَليهِم فَأبوا إلَّا أَنْ يَكونَ الولاءُ لَهُم, فَسَمِعَ النَّبيُّ ﷺ فَأخبَرت عَائِشَةُ النَّبيَّ ﷺ فقَالَ: خُذِيهَا وَاشْتَرِطِي لَهُم الوَلاءَ, فإنَّمَا الوَلاءُ لمَن أَعتَقَ, فَفعَلَتْ عَائشَةُ – رَضي اللهُ عَنهَا, ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في النَّاسِ, فَحَمَدَ اللهَ وَأَثنَى عَليهِ, ثُمَّ قَالَ: مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُروطاً لَيسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ, مَا كَانَ مِن شَرْطٍ

---

(١) بَريَرة: بفتح الباء: إحدى موالى السيدة عائشة- رضي الله عنها, سير الأعلام للذهبي(جـ٥ صـ٦٧١) والإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة, للزركشي صـ١٤ ط مكتبة الخانجى.

(٢) يصلح التعاقد بالكتابة بين حاضرين, أو باللفظ من حاضر والكتابة من الآخر, وكذلك ينعقد البيع إذا أوجب العاقد البيع بالكتابة إلى غائب, بمثل عبارة: بعتك دارى بكذا, أو أرسل بذلك رسولا, فقبل المشترى بعد إطلاعه على الإيجاب من الكتاب أو الرسول, وبه قال الشافعية, لكن اشترطوا: أن يقبل المكتوب إليه بمجرد إطلاعه على الكتاب (الفور من القبول), وصرح الحنابلة: بأن التراضي لا يضر في الإيجاب والقبول. لأن التراضي مع غيبة المشترى لا يدل على إعراضه عن الإيجاب, وجاء فى فتح القدير: (..أنه إذا بلغه الكتاب أو الرسالة فقال: قبلت أو اشتريت تم البيع بينهما, لأن الكتاب من الغائب كالخطاب من الحاضر, لأن النبي ﷺ كان يبلغ تارة بالكتاب وتارة بالخطاب, وكان ذلك سواء في كونه مبلغاً), وقال الشوكانى: (..وأما صحة البيع بالكتابة فصحيح لأنها من جملة المشعرات بالرضا وطيبة النفس), صحيح فقه السنة وأدلته وتوضيح مذاهب الأئمة, للإمام أبى مالك كمال بن السيد سالم جـ٤ صـ٢٦٠.

لَيسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِن كَانَ مائةَ شَرطٍ, قَضَاءُ اللهِ أحَقُ, وَشَرطُ اللهِ أَوثَقُ, وَإنَّمَا الوَلاءُ لِمَن أَعْتَق)[1].

وتتمثـل المرونـة: فـي إقـرار كـل شـرط يتفـق عليـه المتعاقـدان, أو المتعاقدون ما دام لم يخالف نصاً, أو قاعدة شرعية, وبعبارة أخرى: لم يحل حراماً, ولم يحرم حلالاً, وفى هذا جاء حديث رسول الله ﷺ: (المُسْلِمُونَ عِندَ شُرُوطِهِم)[2], وفى هذا يدخل كل عقد يستحدثه المسلمون إذا لم تكن فيه مخالفة للشريعة.

ويتمثـل الثبـات: فـي رفـض النبـي ﷺ للابتكـار والاختـراع وكـل فنـون الإبتداع فيما يتعلق بالعبادات وصور التقرب إلي الله تعالى, لماذا؟ لأن الأصل في العبادات الحظر والتوقيف, فلا يعبد الله إلا بما شرعه الله وأذن به, لا بما تستحسنه العقول, وتسيغه الأهواء, فهذا من باب الغُلو وأصل التحريف والتزييف في الأديان, ولا غرو أن الرسول ﷺ أغلق هذا الباب بإحكام واصرار[3].

عن سعد بن إبراهيم قال: (سَأَلْتُ القَاسمَ بن مُحمدٍ عَنْ رَجُلٍ لَهُ ثَلاثة مَسَاكِنَ فَأوصَى بِثُلثِ كُلِ مَسْكَنٍ مِنْهَا, قَالَ: يجْمَعُ ذَلكَ كُله فِي مَسْكَنٍ وَاحِدٍ, ثُمَ قَالَ: أَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ -رَضي اللهُ عَنهَا- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ عَملَ عَمَلاً

(١) أخرجه الإمام البخاري رقم (٢٧٢٩) كتاب الشروط, وأخرجه أيضاً رقم (٢٧١٧) من كتاب الشروط, ورقم (٦٧٥٩) ورقم (٦٧٦٠) وأخرجه في كتاب البيوع رقم (٢١٦٨) باب إذا اشترط شروطاً في البيع لا تحل, وأخرجه البخاري أيضاً في كتاب العتق رقم (٢٥٦١) باب ما يحوز من شروط المكاتب, وفى كتاب العتق باب استعانة المكاتب وسؤاله الناس رقم (٢٥٦٣).

(٢) أخرجه الإمام الترمذي (٦/ ٢٧٢) رقم (١٢٤٥) رقم (٣٥٧٨) قال ابن حجر: ضعفه ابن حزم, وعبد الحق, وحسنه الترمذي, فتح الباري لابن حجر (٦/٣٢٤).

(٣) الخصائص العامة للإسلام د يوسف القرضاوي صـ٢١١ ط مكتبة وهبة.

لَيسَ عَليهِ أَمرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)[١], وفى رواية: (مَن أَحدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذا مَا لَيسَ مِنْهُ فَهُو رَدٌّ)[٢], قال الإمام النووي -رحمه الله-: "فيه دليل على أن العبادات إذا فعلت على خلاف الشرع تكون مردودة على فاعلها, وأن من ابتدع في الدين بدعة لا توافق الشرع فإثمها عليه, وعمله مردود ويستحق الوعيد"[٣], وقال ﷺ: (مَنْ أَحَدَثَ حَدثاً أَو آوَى مُحدثاً فَعَليهِ لَعَنْةُ اللهِ)[٤], قال الإمام ابن دقيق العيد -رحمه الله-: "قال أهل اللغة: الرد هنا بمعنى المردود, أي: فهو باطل غير معتد به, وقوله: (ليسَ عَليهِ أَمرُنَا) يعنى: حكمنا"[٥], وقال الشيخ ابن عثيمين: "مَنْ عَملَ صَالِحَاً وَلَو كَانَ أَصْلُهُ مَشْرُوعَاً وَلكنَّهُ عَملَهُ عَلى غَيرِ الوَجهِ الذي أُمرَ بِهِ فإنَّه يَكونُ مَردوداً"[٦].

وتتمثل المرونة في تشجيع الابتكار والاختراع في أمور الدنيا, مثل وسائل المواصلات التي يشير إليها قوله تعالى بعد ذكر الخيل والبغال والحمير:

---

(١) أخرجه الإمام مسلم رقم (١٧١٨) كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور.

(٢) أخرجه الإمام البخاري رقم (٢٦٩٧) كتاب الأقضية, وأخرجه مسلم رقم (١٧١٨) وأخرجه أبو داود رقم (٤٦٠٦) وأخرجه ابن ماجه رقم (١٤).

(٣) شرح الأربعين النووية للإمام النووي والإمام ابن دقيق العيد, والإمام ابن العثيمين صـ١٠٤ تحقيق محمد بن السعيد الذين ط مكتبة أولاد الشيخ للتراث.

(٤) أخرجه الإمام البخاري رقم (١٨٧٠) كتاب الأقضية, وأخرجه مسلم رقم (١٣٧٠) وأخرجه أبو داود رقم (٢٠٣٤) (٤٥٣٠) وأخرجه الترمذي رقم (١٤١٢) (٢١٢٧) وأخرجه النسائي رقم (٤٧٣٤) (٤٧٤٦) وأخرجه ابن ماجه رقم (٢٦٥٨).

(٥) شرح الأربعين النووية للإمام النووي والإمام ابن دقيق العيد, والإمام ابن العثيمين صـ١٠٥ تحقيق محمد بن السعيد الذين ط مكتبة أولاد الشيخ للتراث.

(٦) السابق نفسه صـ١٠٦- ١٠٧ وهناك فوائد متعددة ذكرها ابن عثيمين عند شرحه للحديث لمن أراد المزيد صـ١٠٥ ط مكتبة أولاد الشيخ.

(وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ)[١], ومثل أدوات الحرب التي تدخل في قوله تعالى: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ)[٢], ومثل صناعة السدود العظيمة التي تشير إليها قصة (ذي القرنين)[٣], في سورة الكهف[٤], وسائر الصناعات الحربية والمدنية التي تشير إليها الآية الكريمة: (وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ)[٥].

ولهذا رأيناه ﷺ يحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب[٦], ويستخدم المنجنيق في غزوة الطائف[٧], ويحث على الإنتاج الحربي حتى يجعل صانع السهم كالمجاهد الرامي به في استحقاق المثوبة عند الله, ويحذر الأمة أن تكتفي بالزرع وتتبع أذناب البقر, كما رأيناه يتنازل عن رأيه إلى رأى أصحابه فيما يرى أنهم أعلم به وأخبر من أمور الحياة التي لم ينزل الوحي

---

(١) سورة النحل من الآية ٨.

(٢) سورة الأنفال من الآية ٦٠.

(٣) ذو القرنين: مَلِكٌ عُرف بالصرامة والعدالة والقوة, طاف الأرض مشرقاً ومغرباً, وبنى سداً منيعاً أمام يأجوج ومأجوج, فمنع شرهم عن قوم ضعاف, فكان قوى اليأس, واسع السلطان, كثير الأعوان. قصص القرآن للشيخ محمد أحمد جاد الموالى, والشيخ على محمد البجاوى صـ١٩٩- ٢٠٠ ط.

(٤) الآيات كاملة في سورة الكهف في نبأ القصة من الآية ٨٣- ٩٥.

(٥) سورة الحديد من الآية ٢٥.

(٦) غزوة الخندق: وتسمى بغزوة الأحزاب, كانت في شوال. سنة خمس من الهجرة. السيرة النبوية لابن هشام صـ١٥٣ ط دار الحديث القاهرة.

(٧) غزوة الطائف: كانت بعد غزوة حنين في السنة الثامنة من الهجرة, السابق ننفسه صـ٣٧٠ ط دار الحديث القاهرة.

ليعلمها للناس وإنما تركت لعقولهم وتجاربهم يتعلمونها, بدافع حاجاتهم وحرصهم على مصالحهم ومعايشهم.

ولا أدل على ذلك من قصة (تأبير النخل وتلقيحه) حيث كان ذلك من عادة أهل المدينة وهم أهل نخل وزرع فسألهم النبي ﷺ عن صنيعهم فأخبروه, فقال: ما أراه يصلح, فبلغهم قول النبي ﷺ وظنوه وحياً وتشريعاً وتركوا التلقيح, فلم يصلح الثمر, فلم علم بذلك النبي ﷺ كان له موقف من هذا, عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (إنَّ النَّبي ﷺ مَرَّ بِقَومٍ يُلقِّحُونَ, فَقَالَ: لَو لَم تَفعَلوا لصَلَحَ, قَالتْ: فَخَرجَ شِيصاً, فمَرَّ بِهِم فقَالَ: مَا لنَخْلِكُم؟ قَالوا: قُلتَ كذَا وَكذَا, قَالَ: أَنتُم أَعَلمُ بِأَمرِ دُنيَاكُم)[١].

ومن خلال هذا التصور السابق للمواقف المختلفة التي أمدتنا بها كتب السنة النبوية, ندرك يقيناً مدى قيمة هذه السمة وتأثيرها في تجديد الفكر الديني, فهي تجمع بين الثوابت من الأصول والمتجدد من الفروع, وهي بذلك تواكب العصور وتتجدد معها, ولا تقف متأخرة عن الركب, ليصفها أعداء الإسلام بالرجعية والمتحجرة, وأنها دعوة وقتية لا تتماشى مع مستجدَّات العصور وتقدم الأمم, وهي أمور واهية, أثبت الواقع اختلاقها وافتراءها, وأكد العلم الحديث القائم على النظرية والتجربة مدى واقعية هذا السمة وصدقها على أرض الواقع, مما يفتح الباب على مصراعيه أمام الدعاة إلى الله تعالى لاسقاط تعاليم الدعوة الإسلامية ومنهاجها على واقع المجتمعات مع اختلاف أجناسها ولغتها وطبائعها.

فلابد من توجيه خطاب ديني له ارتباط بأصله واتصال بعصره, يظهر من خلاله خصوصية الأمة وتفردها في ارتباطها بثوابتها وأصولها العظيمة,

---

(١) أخرجه الإمام مسلم رقم (٢٣٦٣) كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي.

مستخدماً مستجدَّات العصر وآليَّاته, ودون إغفال للواقع المعاصر الذي يُواكبه توجيه الخطاب الديني, لماذا؟ لأن ذلك من شأنه التكرار وعدم الابداع, والتقليد الأعمى, وهما من أخطر سلبيَّات الخطاب الديني الموجود اليوم.

كما أنه لابد من توجيه خطاب ديني متنوِّع يروي ظمأ الجميع, فالناس مُختلفون في مشاربهم, ومتنوِّعون في مذاهبهم, ولابد من مخاطبة كلٍ على حسب فهمه وقدرته, ورزقه من الكياسة والفطانة, عن علي -رضي الله عنه- قال: (حدِّثُوا النَّاسَ بمَا يَعْرِفونَ أتُحبُّونَ أن يُكذَّبَ اللهُ ورسُولُهُ؟"[1], كما لابد من النص على الاجتهاد, ومراعاة الأولويَّات وتقديم الأهم على المهم, ودرء المفاسد على جلب المصالح, والمصلحة العامة على الخاصة, وتقديم درأ الضرر العام على الخاص, وما تجتمع الأمة في ظلِّه وتحت رايته على ما يُفرِّقها.

([1]) أخرجه الإمام البخاري رقم (١٢٧) كتاب العلم باب مَن خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا.

المبحث العاشر

مراعاة سمة الوسطية في تجديد الفكر الديني

إن خصيصة الوسطية أو الاعتدال من أبرز خصائص الشريعة الإسلامية, ويعبر عنها أيضاً بـ"التوازن", ويُعنى بها: التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين, بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل, وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه, ويطغي على مقابله ويحيف عليه(١), قال تعالى: (وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ)(٢),

وإلى هذه الخصيصة البارزة في الإسلام يشير قوله تعالى مخاطباً أمة الإسلام: (وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)(٣).

ووسطية الأمة مستمدة من وسطية منهجها ونظامها, فهو منهج وسط لأمة وسط, منهج الإعتدال والتوازن الذي سلم من الإفراط والتفريط, أو من الغلو والتقصير, ولقد كان من حكمة الله تعالى أن اختار الوسطية أو التوازن شعارًا أميزاً لهذه الأمة التي هي آخر الأمم, ولهذه الرسالة التي ختمت بها الرسالات الإلهية, على أن في الوسطية معاني متعددة تميز منهج الإسلام وأمة الإسلام, وتجعلها أهلاً للسيادة والخُلود.

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشيخ سيد قطب صـ١١٤ ط دار الشروق, والخصائص العامة للإسلام د يوسف القرضاوى صـ١١٤ ط مكتبة وهبة.

(٢) سورة الرحمن الآيات من ٧-٩.

(٣) سورة البقرة من الآية ١٤٣

فالوسطية تعنى: العدل, فوسطية الأمة مستمدة من عدلها, وقال المفسرون في قوله تعالى: (قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ)[١], أي: أعدلهم[٢], يؤكد هذا الإمام الرازي –رحمه الله– بقوله: "إن أعدل بقاع الشيء وسطه لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء, وعلى اعتدال"[٣], ومن المتعارف عليه: أن الوسط في الأصل اسم لما تستوي نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة, ثم استعير للخصال الذميمة المكتشفة بها من طرق الإفراط والتفريط.

والوسطية تعنى:الإستقامة,استقامة المنهج, وفى القرآن:(ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ)[٤], وهى دليل الخيرية ومظهر الفضل والتمييز, ومن هنا قال الإمام ابن كثير –رحمه الله– في قوله تعالى: (أُمَّةً وَسَطًا)[٥], الوسط هنا: الخيار والأجود, كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً, أي: خيرهما, وكان رسول الله –ﷺ– وسطاً في قومه, أي: أشرفهم نسباً, ومنه: الصلاة الوسطى, التي هي أفضل الصلوات, وهى صلاة العصر على الأرجح, عن أبى يونس مولى عائشة –رضي الله عنها– أنه قال: (أَمَرَتْنِي عَائِشَةُ –رَضي اللهُ

---

(١) سورة القلم الآية ٢٨.

(٢) التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" للإمام الفخر الرازي جـ٤ صـ١٠٨– ١٠٩ط المطبعة المصرية سنة ١٣٥٤هـ– ١٩٣٥م.

(٣) السابق نفسه, الصفحة نفسها..

(٤) سورة الفاتحة من الآية ٦.

(٥) سورة البقرة الآية ١٤٣.

عنها- أَنْ أَكتُبَ لهَا مُصْحَفاً, وَقَالَت: إذَا بَلَغتَ هَذِه الآيةَ فآذنِي: (حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ)(١) فَلمَّا بَلغْتُهَا آذَنتُهَا, فَأَملَت عَليَّ: حَافِظُوا عَلى الصَّلوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسطَى وَصَلاَةِ العَصْر وَقُومُوا للهِ قَانِتينَ, قَالتْ عَائِشَةُ: سَمِعْتُهَا مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ)(٢).

والوسطية في الشريعة الإسلامية تمثل الأمان, وهى دليل القوة ومركز الوحدة وإذا كان للوسطية كل هذه المزايا وغيرها فلا عجب أن تتجلى واضحة في كل جوانب الإسلام نظرية وتطبيقية, تربوية وتشريعية, فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور, وسط في التعبد والتنسك, وسط في الأخلاق والآداب, وسط في التشريع والنظام.

وفى النظام الإسلامي تلتقي الفردية والجماعية في صورة متزنة رائعة, تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات وتتوزع فيها المغانم بالقسطاس المستقيم, فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محددة في اليوم, أو في السنة, أو في العمر, ليظل دائماً موصولاً بالله, غير مقطوع عن رضاه, ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً, يمشى في مناكب الأرض, ويأكل من رزق الله(٣).

وتبقى هذه الوسطية في التشريع الإسلامي عاملاً أساسياً من عوامل النجاح في تجديد الفكر الديني, إذا تمَّ توظيفها في جميع مناحي الحياة بحكمة وإتقان في الدعوة إلى الله تعالى, مهما أراد أعداء الدعوة من طمس هذه

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٨.

(٢) أخرجه الإمام مسلم رقم (٦٢٩) كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.

(٣) الخصائص العامة للإسلام د القرضاوي صـ١٢٤ ط مكتبة وهبة.

الحقيقـة, ووصـف هـذه الـدعوة بأنـها دعـوة التقييـد والتشـدد, ومـع كـل هـذه المحاولات فإنـهم سوف يبوؤن بالفشل, وسوف ترتد سائر موجات الإلحاد علـى أعقابـها مـدحورة خاسرة, وسـوف تبقـى فـي النـهايـة الحقيقـة المجـردة الناطقـة بوسطية الشريعة الإسلامية, لتبقى الدعوة دائماً في القامة العالية, لا تساويها دعـوة, ولا يسـاميها مـنـهج, فـإن هـذه الوسـطية للـدعوة الإسـلامية لهـا دورهـا الواضـح الـذي لا يمكـن غض الطرف عنـه فـي تجديد الفكـر الـديني, مـن أجل تأليف القلوب وجذبها, ثم هي تفتح آفاقاً رحبـة أمام دعاة الوسطية لتوظيف منهجهم الوسطي بسهولة ويُسر, دون أن ينفر منه الناس, أو تسأمه القلوب, وهذا هو دور التجديد في الخطاب المُوجَّه, فلابد من توجيه خطاب ديني يُراعي التـوازن بـين العقـل والـوحي, وبـين المـادة والـروح, وبـين الحقـوق والواجبـات, ويُراعي جميع جوانب الحياة دون افراط أو تفريط, ودون غلـو أو تشـدد, ودون جمود أو انحلال, ذلك أنـه فكر الاعتدال والتوسط.

وما وصلت إليـه الأمـة اليوم من وجـود فئـة مارقـة عنـها تحمـل عبـاءة التشديد والغلو إلا بسبب هذا الفكـر الـديني المغلوط, ذلـك أن بعضـاً مـن دُعـاة اليوم وجَّهوا خطاباً دينيَّاً لا يحمل إلا وجهة واحدة لعملـة واحـدة, فجمَّدوا تعاليم الإسلام وأوقفوها حيث فهموا, رغم أنه فهم عقيم لا عقل فيـه ولا فقـه, فأخرجوا الخطاب الديني عن مساره الصحيح, حتـى صوَّروا الإسـلام فـي أعين الآخـرين على أنـه دين القتل وسفك الدماء, ودين الإرهاب والتخويف.

وإن أمثـال هؤلاء الـذين أخرجوا تعاليم الإسلام عن وسطيتها هم كثـرة كـاثرة يُمثِّلـون عنـد الآخـرين شـخص الإسـلام وكيانــه, فلابـد أن يُـدرك هـؤلاء خطـورة مـوقعهم, وحساسية مـوقفهم, فهـم عيـون الإسـلام التـي تـحرس, وقلبـه الذي ينبض, وهم قـادة الركب, وكـل واحد منـهم علـى ثغر من ثغـور الإسـلام, فليحذر كل منـهم أن يُطعن الإسلام مِن ثغره.

ومن هذا المنطلق فلابد من توجيه خطاب ديني ينطلق من مُنْطَلق الوسطية في منهجه, بعيداً عن التعقيد والتَّشدد, تظهر من خلاله وسطية الشريعة الإسلامية في جميع نواحيها, ولقد تجلَّ هذا الأمر عمليًّاً في حياة رسول الله ﷺ في مواقف متعدِّدة, فقد رفض النبي ﷺ الغلو في الدين, وإخراج الإسلام عن وسطيته واعتداله إلى التطرف والتنطع, سواء أكان في العقائد أم في العبادات أم الأخلاق أم الشرائع, ومن ثم رأينا النبي ﷺ يُحذِّر من الغلو بعبارات شديدة مؤكدة غاية التأكيد فيقول ﷺ: (إيَّاكُم وَالغُلو فَإنَّمَا أَهلكَ مَنْ كَانَ قَبلَكُم الغُلُو)[١], كما رفض النبي ﷺ الغلو في تعظيمه, حماية لحمى التوحيد من أيَّة شائبة للشرك, ولما قال له بعض الناس: ما شاء الله وشئت, قال: (بِئسَ الخَطِيبُ أَنْتَ, قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ)[٢], إنه التخويف المرتقب بالحذر.

ولما بلغه أن رهطاً من أصحابه ﷺ اتجهوا إلى الغلو في التعبد لربهم على حساب حقوق أنفسهم, وأهليهم ومجتمعهم, حتى أن أحدهم عزم أن يصوم الدهر فلا يفطر, والثاني أن يقوم الليل فلا ينام, والثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج, غضب النبي ﷺ لذلك وأنكره بقوة, وليس موقف عثمان بن مظعون –رضي الله عنه– بغافل عنَّا, وقد أنكر النبي ﷺ عليه فعله في مثل هذا, عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: (بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى عُثمَان بن مظعون أَرَغِبتَ عَنْ سُنَّتِي؟ فَقَالَ: لا, وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ, وَلكِن سُنَتَّكَ أَطلُبُ, قَالَ: فَإنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي وَأَصُومُ وأُفطِرُ وَأنكِحُ النِّسَاءَ, فَاتَّقِ اللهَ يَا عُثمانُ, فَإنَّ لأَهلكَ عَليكَ حَقَّاً, وَإنَّ لِنَفْسِكَ عَليكَ حَقَّاً, فَصُم وأَفطِر, وَصَلِ وَنَم)[٣].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم رقم (٢١٥٤) (٢/١٥٠) كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه الإمام البخاري (١٣٨/١) رقم (٦٥٤٢) كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه الإمام أبو داود رقم (٦٩٨٥) (٤٨/٢) كتاب الصلاة باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة.

ولهذا أمر النبي ﷺ بالتيسير والتبشير, ونهى عن التعسير والتنفير فقال ﷺ: (..يَسِّروا وَلَا تُعَسِّروا وَبَشِّروا وَلَا تُنَفِّروا.)[١], ومن ذلك ما ورد عن سماحه ﷺ بالغناء في بيت عائشة -رضي الله عنها- ونهيه لأبي بكر -رضي الله عنه- عن انتهار الجاريتين المغنيتين, عن عائشة -رضي الله عنها- قالت:(دَخَلَ أبو بكرٍ وَعِندي جَارِيَتان مِن جَواري الأَنْصَارِ تُغَنِّيانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ الأَنْصَارُ يَومَ بُعَاث, قَالتْ: وَلَيْسَتا بِمُغَنيتَين, فَقَالَ أَبُو بَكرٍ: أَمَزامِيرُ الشَّيطانِ فِي بَيتِ رَسُولِ اللهِ؟ وَذلكَ فِي يَومِ عِيدٍ, فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا أَبَا بَكرٍ إنَّ لِكُلِ قَومٍ عِيداً وَهَذا عِيدُنَا)[٢].

ومن ذلك أيضاً سماحه ﷺ لعائشة -رضي الله عنها- أن تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون, بل كان النبي ﷺ يسترها وراء ظهره, وحين زجرهم عمر -رضي الله عنه- طلب منه النبي ﷺ أن يدعهم ويُؤمنهم, عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (رَأَيتُ النَّبيَّ ﷺ يَسْتُرنِي وَأَنا أَنْظُرُ إلى الحَبَشَةِ, وهُم يَلعَبُونَ فِي المَسْجِدِ, فَزَجَرَهُم عُمَرُ, فقَالَ النَّبيُّ ﷺ: دَعْهُم أَمْناً بَنِي أَرْفِدة, يَعنِي: مِنَ الأَمْنِ)[٣], وعليه فتقديم خطاب ديني وسطيّ في منهجه هو شجرة مثمرة لها أصل وقرار, أصلها ثابت وفرعها في السماء, يستظل الجميع في ظلّها فتسعهم, ودونه مِلحٌ أُجاجٌ مُر المذاق, تأباه نفس المدعو وترفضه, فلا تأثير ولا تأثر.

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي رقم (٣٢١٤) (٤٥/٣) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الإمام البخاري رقم (٩٥٢) كتاب الجمعة باب سنة العيدين لأهل الإسلام, وأخرجه أيضاً رقم (٩٥٠) كتاب الجمعة, باب الحراب والدرق يوم العيد.

(٣) أخرجه الإمام البخاري رقم (٩٨٨) كتاب الجمعة باب إذا فاته العيد يصلى ركعتين وكذلك النساء.

الفصل الثاني

(أثر أساليب الدعوة الإسلامية في تجديد الفكر الديني)

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: أثر أسلوب الحكمة في تجديد الفكر الديني.

المبحث الثاني: أثر أسلوب الموعظة الحسنة في تجديد الفكر الديني.

المبحث الثالث: أثر أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن في تجديد الفكر الديني.

المبحث الرابع: أثر أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تجديد الفكر الديني.

المبحث الخامس: أثر أسلوب القدوة الحسنة في تجديد الفكر الديني.

مـدخـل:

إن الأسلوب فـي رأي علمـاء اللغـة: هـو الطريـق, والوجهـة, والمـذهب, والفن, يقال: أخذ فلان في أساليب من القول: أي أفانين منـه, فالأسـلوب هـو الطريق[١], وعُرِّف في الاصطلاح بأنـه: كلمات مناسبة فـي مواضـع مناسـبة, أو هو: الفن البيانـي الذي غايته قوة الأداء مع الصحة, وسمو التعبيـر مـع الدقـة, وإبداع الصورة وجمالها[٢], أو هو: اختيـار الألفـاظ وترتيبها فـي شكل لـه أثـره وطابعـه فـي اللغـة المسـتعملة, أو هـو: الـذي تكـون فيـه الملائمـة بـين العِبـرة والفِكـرة, أو بـين اللغـة والمعنـى وبـين تفكيـر القـارئ وقدراتـه, ويظهـر ذلـك فـي حسـن الـذوق وتـآلف الألفـاظ وتناسـق الجُمـل والانسـجام بـين اللفـظ والصـوت والنغم[٣].

ويلاحظ أن هذه التعاريف تعتمد على توضيح الأسلوب من حيث كونـه فناً كلامياً -أي: من حيث اللغة والأدب والنقد- وما يحتويه من أمور تسـتولي علـى الوجـدان والعقل والمشـاعر التـى تقشـعر منـه جلـود الـذين يخشـون ربهـم, ويندفعون إلى ساحة العمل الدعوي, قال تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى

---

(١) مختار الصحاح للجوهري جـ١ص صـ١٣٠ والقاموس المحيط للفيروز آبـادي جا صـ١٣٥ والمعجم الوسيط جـ١ صـ٤٥٧ ط: مجمع اللغة العربية.

(٢) أصـول الـدعوة د عبـد الكـريم زيـدان صــ٨٧ ط مؤسسـة الرسـالة ناشـرون, ووحي القلم للأستاذ مصطفى صادق الرافعي صـ٢٣ تحقيق أيمن محمد عرفـة ط المكتبـة التوفيقيـة.

(٣) دراسات في النقد الأدبي د محمد كامل جمعة صـ٤٢ بتصرف, ط: مكتبـة ابـن خلدون.

ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)[١], ومن ثَمَّ فالأسلوب هو: عرض ما يراد عرضه من معاني وأفكار ومبادئ وأحكام وعقائد وشعائر ومعاملات وآداب..الخ, في عبارات وصِيغ ذات شروط بكافة الأساليب التي سيدور الحديث حولها.

ولقد أردت في هذا البحث بالذات أن يدور الحديث عن الأساليب الدعوية وأثرها في تجديد الفكر الديني, وهذا لا يعني أني أغفل الطرف عن الوسائل ودورها, غاية الأمر أني وجدَّت الأساليب تلعب دوراً بارزاً في تجديد الفكر الديني, فهي نقطة الانطلاق, ومركز الدائرة, وهي القاعدة الأساسية في تجديد هذا الفكر, فلا يشغل بالي ما هي الوسيلة التي تُستخدم في التجديد للفكر الديني بقدر أن يكون هنال فكر ديني جديد موجَّه بالفعل, ولن يتم تحقيق هذا دون وجود الطريقة المناسبة والكائنة على أرض الواقع, خاصَّة أن الأمر في عصرنا اختلف عن قديمه, فالوسائل اليوم لا تقتصر عللى خُطبة الجمعة فقط[٢].

فبتفاوت الزمن عرف الناس مُسمَّيات أُخرى للخطاب الديني المُوجَّه, منها: المحاضرة, الندوة, الدرس, المقال, المناظرة, الجدل..الخ, ناهيك عن الوسائل الحديثة كالصحف والمجلات والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية والانترنت..الخ, وكل هذه الوسائل في غياب الأساليب المناسبة تكون مُعطَّلة

---

(١) سورة الزمر الآية ٢٣..

(٢) تُعتبر هذه الوسيلة هي الأهم للتوجيه في الخطاب الديني, لما لها من أصالة وعراقة, أضف إلى ذلك تَكرارها أسبوعياً, وحضور جمع غفير فيها قد لا يتوفر في غيرها, ناهيك عن أدب الإنصات والإستماع وهو أمر لا تتمتَّع به باقي الوسائل..الخ.

وقيد الانتظار, ومن الخطأ أن نجعل الخطاب قاصراً على وسيلة واحدة من الوسائل السابقة, أو حتى أن نُسوي بينها في نَفَسٍ واحد.

ومما يُثير الدَّهشة أن العديد من تواليف تجديد الخطاب الديني ركَّزت على ذكر آليَّات التجديد, وإذ بهذه الآليات تتمثَّل في أساليب الدعوة دون ذكر جديد, على حد قول الشاعر:

وإنِّي أفتحُ عيني حينَ أفتحها على كثير ولكن لا أجد أحداً

وخشية التَّكرار المفضي إلا إضاعة الوقت والجهد, أردت التركيز على أثر الأساليب الدعوية في تجديد الفكر الديني, حنى لا نقع تحت قول الشاعر:

ما أراني أقولُ إلا مُعاراً أو مُعاداً مِن قولهم مكروراً

المبحث الأول

أثر أسلوب الحكمة في تجديد الفكر الديني

قال الله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[١], وفى هذا المعنى جاء قول رسول الله ﷺ: (لا حسدَ إلا في اثنين رجلٌ آتاه اللهُ مالاً فسلطَه عَلى هلكتِه في الحقِّ, ورجلٌ آتاه اللهُ الحكمةَ فهو يقضي بهَا ويعلمهَا)[٢], فالحكمة صفة لها ارتباط وثيق بالتكوين الإنساني من خلال صفات أخلاقية محددة, تظهر لنا من خلال قدرة الله تعالى بإيتائها للإنسان واكتسابها بالتعلم والاستعداد بالطبع الأخلاقي[٣], قال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)[٤].

وعلى هذه الأسس يُرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها ويُعيِّن وسائلها وطرقها, ليكون أسلوب الحكمة من أهم أساليب الدعوة إلى الله تعالى[٥], وهكذا يخط القرآن الكريم المنهج للرسول الكريم ﷺ وللدعاة من بعده, والدعوة بالحكمة كإحدى أساليب التجديد للفكر الديني, يراد بها: وضع

---

(١) سورة النحل من الآية ١٢٥.

(٢) أخرجه الإمام البخاري رقم (٧٣) كتاب العلم, والحديث أطرافه في: ١٤٠٩-٧١٤١-٧٣١٦, وأخرجه الإمام مسلم (٨١٦) كتاب العلم.

(٣) حكمة الدعوة للأستاذ رفاعي سرور صـ٧ ط الحرمين.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٩.

(٥) فقه الدعوة د جمعة الخولي صـ١٧٠ ط: بدون, وفقه الدعاة للشيخ سعيد عامر صـ١٠١ ط بدون.

الشيء في موضعه, والسداد في القول والعمل, والبعد عن الفساد والسفه, فهي: إصابة الحق بالعلم والعدل[١].

والدعوة بالحكمة تقتضى النظر في أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها والطريقة التي يخاطبهم بها, والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها فلا تستبد الحماسة بالداعية, ويأخذ الاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفى سواه.

والناظر في الآية الكريمة يرى أن الحق تعالى لم يصف الحكمة بالحَسَنَة, في حين وصف الآخَرَين به, لماذا؟ لأنها حسنة كلها وحسنها ذاتي بخلاف الآخَرَين[٢], والدعوة بالحكمة هي دعوة يحكمها الأدب دون إحراج المدعو أو تجريحه فهي دعوة إلى تقديره للتمسك بمنهج الحق, دون تكديره ليكون أدعى للرفض دون القبول, عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: (إنَّ أسماءَ بنت أبي بكرٍ دَخلت عَلى رسولِ اللهِ ﷺ وعليهَا ثِيابٌ رَقاقٌ فأعْرَضَ عنهَا, وقالَ: يَا أسماءُ إنَّ المرأةَ إذَا بلغَتِ المحيضَ لَم تَصْلُح أن يُرى منهَا إلا هذَا وهذَا, وأشارَ إلى وجهِه وكفيهِ)[٣], إنه توجيه بالحسنى دون تجريح أو إحراج, وتلك هي الحكمة.

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني مادة (حكم) صـ١٢٧ ط دار المعرفة.

(٢) نزهة في عقول الآخَرين د محمود عمارة صـ٢٠٠ ط مكتبة الإيمان.

(٣) أخرجه الإمام أبو داود (٣٦٦/٧) رقم (٤٨١٢) باب إنزال الناس منازلهم, ونصه: عن عائشة- رضي الله عنها-: (مر بها سائل فأعطته كسرة ومر بها آخر عليه ثياب وهيئة, فأقعدته فأكل, فقيل لها في ذلك؟ فقالت: قال رسول الله ﷺ (أنزلوا الناس منازلهم).

ومن حكمة الداعية إلى الله تعالى في توجيه خطابه الديني أن يلتزم الرفق واللين والأناة[١], ولا يغيب عنه قول الحق تعالى: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)[٢], مع مراعاة الفارق في القضية, ولهذا فلا عجب أن يجعل البعض للحكمة في الدعوة أركاناً ثلاثة وهى: (العلم والحلم والأناة)[٣], ومواقفه ﷺ كلها وأقواله كذلك تنطق بالحكمة, بل كلها تجسيد لها, ولكني أكتفي هنا ببعض هذه الأحاديث ليتعلم منها الدعاة إلى الله تعالى كيف تكون الحكمة من أهم أساليب التجديد للفكر الديني المنشود, عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُ الرفقَ في الأمرِ كُلهِ)[٤], وفي رواية: (إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانَه ولا يُنزعُ مِن شيءٍ إلا شَأنَه)[٥], ولا يغيب عن الداعية أنه مَنْ يُحرم الرفق يُحرم الخير كله.

ومن حكمة الداعية في توجيه خطابه الديني أن يراعي مكانة المدعو الاجتماعية بين أهله وعشيرته, وهذا يقتضي إنزاله منزلته, فإن في ذلك نفع للدعوة, وهو منهج دعوي علَّمه النبي ﷺ للصحابة قولاً وفعلاً, قال ﷺ: (أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنازِلَهُم)[٦], ثم علم النبي ﷺ أصحابه ذلك الأدب عمليَّاً, وذلك في الحديث الطويل الذي روته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حول غزوة بنى قريظة ورَدِّ رسول الله ﷺ الحُكم فيهم إلى سعد بن معاذ - رضي الله عنه,

---

(١) الأناة: تعني التثبت وترك العَجلة, لسان العرب لابن منظور ١/١٨٩.

(٢) سورة طه من الآية ٤٤.

(٣) الحكمة فى الدعوة إلى الله تعالى للشيخ سعيد القحطاني صـ١٢٣ ط بيروت.

(٤) أخرجه الإمام البخاري رقم (٦٠٢٤) كتاب الأدب, والإمام مسلم (٢١٦٥) كتاب الأدب.

(٥) أخرجه الإمام مسلم (٢٥٩٤) كتاب الأدب, والإمام أبو داود (٤٨٠٨) كتاب الأدب.

(٦) أخرجه الإمام أبو داود (١٧٢٥) كتاب الأدب باب إنزال الناس منازلهم.

فحَكم فـيهم حكمـاً, قـال فيـه ﷺ: (لقَـد حَكَمْـتَ فـيهِم بحكـمِ اللهِ عـزَّ وجـلَّ)[١], والشـاهد أنـه ﷺ لمـا أرسـل إلـى سعد بـن معـاذ ليُحَكِّمـه, جـاءه سـعد, فلمـا دنـا قريبـاً مـنهم قـال ﷺ للأنصـار: (قُومـوا إلـى سَيِّدِكُم أو خِيـرِكُم)[٢], وهـذا درس للدعاة بإكرام أهل الفضل وتلقيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا, وإنـزال النـاس منـازلهم, فإنه أدعي لجذبهم وتأليف قلوبهم.

وعليـه: فحكمتـه ﷺ ينبغي إن تكون نبراساً يهتدي بـه الدعاة إلـى الله تعالى فى توجيه خطابهم الديني, فإذا أراد الداعيـة أن يُربـي ملكـة الحكمـة فـى نفسه وينميها فعليه بكتاب الله تعالى فهو أصل الحكمة, وسنة النبي ﷺ وسيرة سلف الأمة الصالح, فهذه هي منـابع الحكمـة ولا شك أن الداعيـة كلمـا ازدادت تجاربه فى الدعوة كلما ازداد حكمةً ودرايةً.

إن أسلوب الحكمـة مـن أهم أساليب التجديد للفكر الديني, لما يترتب عليـه مـن فوائـد كثيـرة, وبالتـالي تكـون الثمـرة المرجـوة, ويسـتطيع الداعيـة مـن خلالـه أن يُصـيب الهـدف ويُحقـق المـراد, فهـي إصـابة للحـق بـالعلم والعقـل, والجمع بين النظريـة والعمليـة, ووضـع للشـيء فـي موضـعه, وحمـل للمـدعوين على قبول الداعي, وبالتالي ما يدعو إليه, فيكون أسلوب الحكمـة بذلك شـاملاً لجميع الأساليب الدعوية من هذا الوجه, وهذا الأسلوب من شأنه أن يُربي عند الداعية مظاهر الحكمة في منهجه الدعوي, وأساليبه, ووسائله.

وقد كان الرسول الداعية ﷺ يختار من أسلوب الحكمة ما يتماشـى مـع كل مدعو, ولذلك فقد تعددت مواقفـه ﷺ التـي كـان أسلوب الحكمـة فيهـا مظهـراً مـن مظـاهر الـدعوة إلـى الله تعـالى, فأحيانـاً كـان النبـي ﷺ يسـتخدم التلمـيح لا

([١]) أخرجه الإمام مسلم (١٧٦٩) كتاب الجهاد والسير باب جواز قتالي من نقض

([٢]) أخرجه الإمام مسلم (١٧٦٨) كتاب الجهاد والسير بـاب جواز قتـال مـن نقض العهد, ووافقه البخاري (٣٠٤٣) وأبو داود (٥٢١٥).

التصريح في مواجهة بعض المدعويين بأخطائهم وضرورة التعريض بها, وقد تواتر إلينا أنه ﷺ كان أحياناً إذا رأى شيئاً يُغضبه أو سمع ما لا يُعجبه يقول: "ما بال أقوام يقولون كذا وكذا..؟"[١].

كما كان النبي ﷺ يُوجِّه خطابه الديني وفقاً لحال المدعو ووضعه فإذا كان "لكل مقام مقال" فإن "لكل مدعو خطاباً دينيَّاً معيَّناً" ولهذا وجدنا خطابه الديني لأهله وأقاربه يختلف عن غيرهم, كما وجدنا خطابه للأعراب[٢] يختلف عن غيرهم, وكذلك خطابه للجهلاء يختلف عن غيرهم..الخ.

ولنضرب لذلك عدَّة أمثلة: فقد اقتضت حكمته ﷺ أن يستخدم مع الأهل والأقارب في توجيه خطابه الديني إليهم أسلوب اللين والرفق, مراعياً في ذلك صلة القربى والمودَّة والرحمة, مع حرصه الشديد على هدايتهم, قال تعالى: (فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا)[٣], وما موقف النبي ﷺ من عمِّه أبي طالب وهو على فراش الموت منَّا ببعيد, فقد أخبر سَعِيدُ

---

(١) أخرجه الإمام أبو داود(٤٧٨٨) كتاب الأدب باب في حُسن العشرة.

(٢) الأعراب هم ساكنوا االبادية من العرب الذين لا يُقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلا لحاجة, وقد عُرف عنهم حدَّة الطبع, وغلظة القول, والنفاق في العمل, فوفي القرآن: "الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرَاً وَنِفَاقَاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُوْلِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" سورة التوبة الآية ٩٧, وفي السنة النبوية من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "قَامَ رَسولُ ﷺ فِي صَلاةٍ وَقُمْنَا مَعَهُ, فَقَالَ أَعْرَابِيٌ وَهُو فِي الصَّلاة: اللهُمَّ ارْحَمْنِي ومُحمَّداً وَلا تَرْحَم مَعَنا أحداً, فلمَّا سَلَّمَ النبي ﷺ قالَ للأعرَابِي: لَقَد حَجَّرت وَاسِعَاً يَريدَ رحمة الله" أخرجه الإمام البخاري رقم (٥٦٦٤) كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم,, وليس أدل على قسوة قلوبهم منحديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: "جَاءَ أعْرَابِيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ: تُقَبِّلونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُم, فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ أَو أَملكُ لكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ", أخرجه الإمام الخاري رقم (٥٦٥٢) كتاب الأدب باب رحمة الولَد وتقبيله ومعانقته.

(٣) سورة الكهف الآية ٦.

بن المُسَيَّب عن أبيه أنه قال: (لمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْل بن هِشَامٍ وعبد اللهِ بن أَبِي أُمَيَّةَ بن الْمُغِيرَةِ, قالَ رَسُولُ الله ﷺ لأَبِي طَالِبٍ يَا عَم قَّلْ لا إلـه إلا الله كَلِمَـةً أشْـهَدُ لكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ, فقالَ أبو جَهْلٍ وَعَبد اللهِ بن أبِي أُمَيَّةَ يَا أبا طَالبٍ أتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبد المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَليه ويَعُودَان بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حتَّى قَالَ أبو طَالِبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ: هُو عَلى مِلَّةِ عبد المُطَّلِب وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لا إلـهَ إلا الله, فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمَا واللهِ لأَستَغْفِرَنَّ لكَ مَا لَمْ أُنْـهَ عَنْكَ, فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى فِيـهِ: "مَاكَان لِلنَّبِيِّ" الآية)[1].

وهذا الخطاب الديني من النبي ﷺ اختلف مع غيره من الأعراب مثلاً, فهؤلاء الأعراب كانوا ضعيفي الإيمان ما أن يُبتلى أحدهم حتى يرتدَّ, ويطلب ردَّ بيعته, ففي السنَّة من حديث جابر -رضي الله عنه- قال: (جَاءَ أعْرَابِيٌّ النَّبيَّ ﷺ فَبَايَعَهُ عَلَى الإسْلَامِ فَجَاءَ مِنَ الْغَدِ مَحْمُوْماً فقَالَ أقِلْنِي فَأَبَى ثَلاثَ مِرَارٍ فقال الْمَدِينَـةُ كَالكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طَيِّبُهَا)[2], ولذلك فإن حكمته ﷺ اقتضت استخدام ما ينفع لهم, ويتماشى مع طبيعتهم, من أجل تقديم خطاب ديني يُراعي ما جُبلوا عليه من الغلظة والجَفاء, ليكون باعثاً لهم على الامتثال.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: (قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ, فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ, فَقَالَ لَهُم النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ أَو ذَنُوباً مِنْ مَاءٍ فإنَّما بُعِثْتُم مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ)[3], إن هذا الصنيع إن

([1]) أخرجه الإمام الخاري رقم (١٢٩٤) كتاب الجنائز باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله.

([2]) أخرجه الإمام الخاري رقم (١٧٨٤) أبواب فضائل المدينة باب المدينة تنفي خبثها.

([3]) أخرجه الإمام الخاري رقم (٢١٧) كتاب الوضوء باب صب الماء على البول في المسجد.

دلَّ على شيئ فإنما يدل قِصَرٍ في الفكر, وضيقٍ في التفكير, وقلَّة في النظر, وتقدير المواقف, وإثارة غضب الآخرين وإثارة مشاعرهم, ولكن سرعان ما أنهى النبي ﷺ هذه القضية الشائكة التي كان من شأنها وجود ضحايا وأشلاء, فإذا به ﷺ يُوجَّه خطاباً دينيَّاً بأسلوب حكيم فيقضي على بذرة الشَّر في مهدها, فينهي الأعرابي بلين القول ولطف الخطاب, ثمَّ يأمر أصحابه الذين أخذتهم الغَيرَة, حتى ثارت ثائرتهم من فعل هذا الأعرابي فيأمرهم بالتيسير واللين في الدعوة.

بل كانت حكمة النبي ﷺ في توجيه خطابه الديني تُراعي عقل المدعو وحدود تفكيره, وقَدْرِ رزقه من الفطانة والذكاء, عن أبي هريرة –رضي الله عنه– (أنَّ أَعْرَابيَّاً أَتى رَسولَ اللهِ ﷺ فقَالَ إنَّ امْرَأتِي وَلَدَتْ غُلاماً أَسْوَدَ وَإنِّي أَنْكَرْتُهُ, فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَلْ لكَ مِنْ إبلٍ؟ قالَ: نَعَم, قالَ: فَمَا ألوانُهَا؟ قالَ: حُمْرٌ, قالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ قَالَ إنَّ فيهَا لَوُرْقَاً, قالَ: فأنَّى تُرى ذَلكَ جَاءَهَا؟ قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عِرْقٌ نَزَعَهَا, قالَ: ولعلَّ هَذا عِرْقٌ نَزَعَه, وَلَمْ يُرَخِّصْ لَه فِي الانْتِفَاءِ منه)[١], إذن أسلوب الحكمة أسلوب ضروري وفعَّال, وأثره واضح في تجديد الفكر الديني.

ومن حكمة الداعية في توجيه خطابه الديني أن يقتصر في خطابه على قدر فهم المدعو, فلا يُلقي إليه مالا يبلغه عقله فيُنفِّره, ولذلك قيل: (قِل لكل عبد معيار عقله, وزِن له بميزان فهمه, حتى تسلم منه وينتفع منك, وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار)[٢], وفي هذا يقول النبي ﷺ (خَاطِبوا النَّاسَ عَلى

---

(١) أخرجه الإمام الخاري رقم (٦٨٨٤) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب مَن شبَّه أصلاً معلوماً بأصل مُبيَّن وقد بيَّن النبي ﷺ حُكمهما ليُفْهِمَ السائل.

(٢) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي جـ١ صـ٥٧ ط دار الفكر.

قَدْرِ عُقُولِهِم)[١], وتتجلى حكمة الداعية الأعظم ﷺ في مراعاة المستوى الفكري والثقافي لدى المدعوين, والبيئة التي نشأوا فيها, وما جُبلوا عليه, عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: (قالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: لولا حَداثة عهدِ قومِكِ بالكُفْرِ, لنقضتُ الكعبةَ ولجعلتهَا على أساسِ إبراهيمَ, فإنَّ قريشًا حينَ بنت البيتَ استقصَرت, ولجَعلْتُ لهَا خَلْفًا..)[٢], ويلاحظ أنه ﷺ قد راعى أن القوم حديثو عهد بجاهلية فلم يهدم الكعبة مخافة أن يُفتنوا, لكن مراعاة الواقع لم تمنعه ﷺ من إعلان وجه الحق في هذه القضية الشائكة.

ومن أهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى فقد خصَّ الإمام البخاري –رحمه الله- في صحيحه باباً لهذا الحديث وأمثاله, وترجم له بقوله: "باب مَن ترك بعض الاختيار مخافة أن يَقْصُر فهم بعض الناس عنه, فيقعوا في أشد منه"[٣].

واليوم حين أخطأ الدعاة إلى الله تعالى في تقديم خطاب ديني يقوم على أسلوب الحكمة في منهجهم الدعوي شوَّهوا بذلك الشخصية الإسلامية, وقدَّموا فكراً دينيَّاً باهتاً, لا يُوصف إلا بالسلبيَّة المحضة, وضربوا الدعوة في مقتل, فصوَّروا الدعوة بصورة مشوَّة كان من شأنها الإساءة لهم ولمنهجهم,

---

(١) دراسات في النقد الأدبي د محمد كامل جمعة صـ٤٢ بتصرف, ط: مكتبة ابن خلدون.

(٢) أخرجه الإمام مسلم (١٣٣٣) كتاب الحج باب نقض الكعبة وبنائها ووافقه الإمام البخاري (١٥٨٥) والإمام النسائي (٥/٢١٥) وقوله: (ولجعلت لها خَلْفا) هو بفتح الخاء وإسكان اللام, والمراد به: باب من خلفها, ولقد جاء هذا مُفسَّراً في رواية: (ولجعلت لها بابا شرقياً وباباً غربياً) ويدل عليه رواية: (ولجعلت لها خَلْفين) أي: بابين, فتح الباري لابن حجر (٦/٩٨) ط دار الحديث القاهرة.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني (١/٢٢٤) ط دار الحديث القاهرة.

واختاروا العيش بدعوتهم في الظلام, مما نفَّر منهم, وقلَّل من آثار دعوتهم في حياة المدعوين, ويبقى أسلوب الحكمة من أهم الأساليب في تجديد الخطاب الديني, والذي يجب على الداعية أن يضعه نصب عينيه.

المبحث الثاني

أثر أسلوب الموعظة الحسنة في تجديد الخطاب الديني

قال الله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ..)[١], هذه هي الدعامة الثانية من دعائم الإطار العام لأساليب التجديد في الفكر الديني, وهي في ذاتها أسلوب مهم من أساليب الدعوة إلى الله تعالى[٢], والموعظة هي: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب, والقول الحق الذي يُلين القلوب ويُؤثِّر فى الوجدان, ويكبح جماح النفوس المتمردة, ويُزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية[٣], والموعظة الحسنة كذلك هي: التخويف والترجئة والتلطف بالإنسان بأن تُجلَّه وتنشطه وتجعله بصورة من يَقبل الفضائل.

وفي هذا يقول الشيخ على محفوظ -رحمه الله-: "اعلم أن لهذا الفن ثلاثة أسماء: وعظ وتنكير وقصص, فالوعظ والموعظة والعظة: النصح, والتنكير: يكون بالعواقب سواء كان بالإستمالة والترغيب أم بالزجر والترهيب, وقيل: هو تذكيرك الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب"[٤].

وإنما تنفع الموعظة وتؤتى ثمارها بعد حصول ثلاثة أشياء: الحاجة إليها, وأن يكف المدعو عين بصره عن عيب الواعظ إن وُجد, وأن يتذكر الوعد والوعيد, وإنما تكون حاجته إذا ضعف تذكره وإن اشتدت حاجته غلى

([١]) سورة النحل من الآية ١٢٥.

([٢])) يُنظر في هذا: فقه الدعوة د جمعة الخولي صـ١٧٣ ط بدون, ومعالم في منهج الدعوة للشيخ صالح بن عبد الله بن حميد صـ٢١ ط الأندلس الخضراء.

([٣]) مجموع الفتاوى لابن تيمية صـ٧١ ط الرئاسة العامة للبحوث الإسلامية بالسعودية.

([٤]) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ صـ٧١ ط الاعتصام.

معرفة المدعو إليه[١], فالغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب (العظة) لماذا؟ ليتذكر ما نسيه.

وقد أمر الحق تعالى الرسول الداعية ﷺ بالوعظ البليغ, قال تعالى: (وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)[٢], ويبين أن عمل الموعوظ بالوعظ سبب للخير والتثبيت في الدنيا والآخرة, قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)[٣], ثم تأتي الموعظة الإلهية في مقام التحذير والترهيب, لماذا؟ لتكون أدعى إلى حمل المدعو على المطلوب وترك المنهي عنه, قال تعالى: (يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[٤], وفى الوقت ذاته لا تكون الموعظة إلا إذا كانت تجمع بين الترهيب والترغيب, وهذا هو سر اللفظ القرآني: (وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ..)[٥], والمعنى[٦]: وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق, وتتعمق المشاعر بلطف, لا بالزجر والتأنيب في غير موجب, ولا يفضح الأخطاء التي قد تقع من جهل أو حسن نية, فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي إلى القلوب الشاردة, ويُؤلف القلوب النافرة, ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

ولم تكن السنة النبوية بمنأى عن هذه الوسيلة إلى جانب القرآن الكريم, فالأحاديث النبوية كثيرة ومتواترة أتت بالعديد من العظات التي كان

---

(١) نزهة في عقول الآخرين د محمود عمارة صـ١٩٨ ط مكتبة الإيمان.

(٢) سورة النساء من الآية ٦٣.

(٣) سورة النساء من الآية ٦٦.

(٤) سورة النور الآية ١٧.

(٥) سورة النمل من الآية ١٢٥.

(٦) تفسير الظلال "في ظلال القرآن" للشيخ سيد قطب جـ٤ صـ٢٠٢ ط دار الشروق, بتصرف يسير.

يوجهها النبي ﷺ لأصحابه وَلِخَلَفِهِم مِن بعدهم في كل المجالات بمختلف أنواعها, فقد رُوي: (كانَ ﷺ يَتخوَّلنا بالمَوعظةِ في الأيامِ كراهيةَ السَّآمةِ علينَا)[١], ورُوي: (وعظَنا رسولُ اللهِ ﷺ موعظةً ذرفت منهَا العيونُ, ووجلت منهَا القلوبُ)[٢], ألا وإن أحاديث الترغيب أكثر من أن تُحصى, وكثيراً ما نوجه الأنظار إليها, الأمر الذي يدفعني إلى ذكر نماذج تحمل معاني الترهيب والتخويف لتكون أدعى إلى التذكير والتحذير ثم التنفير, فقد جاء فى حديث أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- عن رسول الله ﷺ قال: (... يَا أمَّةَ محمدٍ واللهِ لو تَعْلَمُونَ مَا أعلمُ لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيراً)[٣].

وأحيانا كان الرسول الداعية ﷺ يقص القصص عن أحداث السابقين- ليس للتسلية – بل للعظة والعبرة كما حكى القرآن الكريم: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ)[٤], والشاهد أنه ﷺ كان يحمل بين هذه العظات والعبرات من معاني التخويف والترهيب ما يكون أدعى للزجر والتحذير, عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: (وكانَ إذَا رأى غَيمًا أو ريحًا عُرفَ في وجهِهِ قالت: يَا رسولَ اللهِ إنَّ الناسَ إذَا رَأَوْا الغيمَ فرحوا رجاءَ أن يكونَ فيهِ المطرُ, وأراكَ إذَا رأيتَه عُرفَ في وجهكَ الكراهيةُ؟ فقالَ: يَا عائشةُ ما

---

(١) أخرجه الإمام البخاري (٦٨) كتاب العلم باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا, والحديث طرفاه في: (٧٠) (٦٤١١).

(٢) أخرجه الإمام البخاري (٦٨) كتاب المعلم- باب النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا- والحديث طرفاه في: (٧٠) (٦٤١١).

(٣) أخرجه الإمام البخاري (١٠٤٤) كتاب الكسوف- باب الصدقة فى الكسوف, والحديث أطرافه فى: ١٠٤٦- ١٠٤٧-١٠٥٠-١٠٥٦-١٠٥٨-١٠٦٤-١٠٦٥-١٠٦٦-١٢١٢-٣٢٠٣-٥٢٢١-٦٦٣١.

(٤) سورة يوسف من الآية ١١١.

يُؤمنِّي أن يكونَ فيهِ عذابٌ, عُذِّبَ قومٌ بالريحِ وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا: (هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا)[١][٢].

وأحيانا كان ﷺ يعظ الناس, ثم يسوق عظة أو حديثاً يذكر فيه جهنم ليكون أدعى للترهيب وأقوى في الزجر عن فعل مذموم, عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: (رأيتُ جهنمَ يُحطم بعضُها بعضَاً ورأيتُ عَمراً[٣] يجر قُصبه, وهُو أولُ مَن سيَّب السَّوائبَ)[٤][٥], ورغم هذا كله فالداعية الفطن هو الذي يدرك معاني الموعظة الحسنة, كيف؟ بأن يخلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة[٦], لماذا؟ حتى لا يغرق في بحر لجِّي يغشاه موج من فوقه موج فتعقبه ظلمات الفشل والإنهيار فيصبح حملاً على الدعوة وليس مدافعاً

---

(١) سورة الأحقاف من الآية ٢٤.

(٢) أخرجه الإمام البخاري (٤٨٢٩) كتاب التفسير باب قوله تعالى: (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا).

(٣) هو: عمرو بن عامر الخزاعي أحد رجالات قريش .سير الأعلام للإمام الذهبي جـ٦ صـ٨٧١ ط الريان.

(٤) السائبة: ها التي كانت تُسيَّب فلا يُحمل عليها شيء حتى تُقدم للأصنام, وكان عمرو هو أول من فعل ذلك فكان هذا جزاؤه. راجع فتح الباري لابن حجر ٣٣٠/٨.

(٥) أخرجه الإمام البخاري (٤٦٢٤) كتاب التفسير باب قوله تعالى: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام).

(٦) أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً د عبد الغنى بركة صـ١٠٩ ط مكتبة وهبة.

عنها, قال ﷺ: (إنَّ اللهَ لَم يَبعثنِي مُعنِّتًا وَلا متعنِّتاً, ولكِن بَعثَنَي مُعلِّماً مُيسِّراً)(١), فتبقى الموعظة الحسنة سلاح الإقناع والإستمالة.

ومن هذا المنطلق فإن قيمة هذا الأسلوب وسرعة الاستجابة له بالترغيب أو الترهيب يفرض على الداعية تصويب نظره تجاهه من أجل تجديد فكره الديني, بأن يُوجِّه الداعية خطاباً دينيًّا جديداً بعيداً عن الخطاب القائم اليوم على الترهيب والتخوييف فقط, حتى أقنط الناس من رحمة الله, مختذلاً خطابه الديني في لا علاقة لها بالواقع..الخ, ومن العجيب أنه في الوقت الذي راعت فيه مؤسسة وزارة الأوقاف المصريَّة –تحت مظلَّة القيادة السياسية– القدر العلمي والثقافي عند بعض أئمَّتها فقامت بعدَّة خطوات لحل أزمة الخطاب الموجَّة, فقامت بكتابة جُطبة أسبوعية –على أيد مُتخصِّصين– مُحدَّدة الموضوع تُصدرها عبر موقعها على شبكة الإنترنت, فكفت بذلك الأئمة مؤنة البحث عن اختيار الموضوع, بل أمدَّتها بالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية والآثار إن وُجد, وعلى الرغم من هذا كله فإن كثيراً من الأئمة يعيشون في واد آخر لا يُراعون فيه الوضع والحال مما أفقد الخطاب الديني توازنه.

وأصبح الدعاة إلى الله تعالى يُقدِّمون اليوم خطاباً باهتاً, مملوءاً بالسآمة والكآبة, لا مدلول له ولا تُعرف غايته, عُرف بخطاب الأبواب المغلقة, فصوَّروا تعاليم الدين السهلة السمحة تصويراً سيئاً, وقدَّموا بضاعة الإسلام بصورة رديئة شوَّهت من شِيم الإسلام وقِيمه الشامخة, حتى وُصِفَ الإسلام – من نظر أعداءه– بأنه دين الفكر المتطرف وليس دين التنوير, وما ذلك إلا أن دعاة اليوم غفلوا عن أسلوب الموعظة الحسنة كقيمة وقامة, وكأسلوب يشتمل على الترغيب والترهيب, يستطيع الداعية من خلاله أن يُقلِّب المدعو أو

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (١٤٧٨) كتاب الطلاق باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية.

المتلقي بين يديه –كما يفعل الأسد بفريسته– بعدما أصبح طينة لينة, وعجينة هيّنة, يُشكِّلُها كيف شاء.

إن أسلوب الموعظة الحسنة أسلوب مُميَّز يُطلق على القول الحق الذي يلين القلوب, ويؤثر في النفوس, ويكبح جماح النفوس المتمردة, ويزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية, دون فقدان لقداسة هذه النفس وحرمتها, وهو أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى, لا يتقيد بزمن معين أو فى وقت محدد كما هو الحال في الخطابة, وأيضاً لا يقتصر على موضوع بعينه وإنما يباح في أي وقت وبلا قيود من حيث الإلتزام بوحدة الموضوع أو الإيجاز في معالجته.

فالوعظ أثره كبير في تجديد الفكر الديني, فهو يعالج عِلل النفوس المريضة وذلك بتصفيتها مما ران عليها من الآثام، وكذلك يُرَقِّق القلوب الجامدة فيجعلها تنبض بالخشية وتغمرها الرحمة والمحبة, وبالوعظ والتذكير تتهذب النفوس وتنتبه العقول وتستيقظ من رقدتها وتستنير البصائر بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصي, وقد اتخذ الرسول ﷺ من الوعظ وسيله لنشر الدعوة وتبليغ تعاليمها إلى الناس, فكان يعظهم بين الحين والحين متخيراً أفضل الأوقات وأفضل الفرص التي يمكن للوعظ أن يؤتى ثماره المرجوة فيها, فلم يكن وعظه مقيدا بوقت أو زمن أو موضوع وإنما كان عاماً في شئون الدنيا وأمور الدين, فقد كان ﷺ يتخولهم بالموعظة في الأيام كراهية السآمة، وكان وعظ الرسولﷺ يتم في المسجد غالباً.

ومن ثم كانت مواعظه ﷺ من الوسائل التي أتت ثمارها في تبليغ الدعوة ودخول كثيرين في الإسلام عندما يستمعون إليه ويشاهدون عن كَثَب أدبه وخلقه وأسلوبه مع المدعوين, فيؤمنون بدعوته عن طواعية وقد أسرتهم مواعظه, واستولت على مشاعرهم آدابه العالية وأخلاقه العظيمة, وإلى جانب

ذلك فقد كانت مواعظه ﷺ تخرج من قلبه فتنفذ إلى قلوب سامعيه لتزيدها خشيه وإيماناً, ولتزيل عنها حجب الظلمة المعتمة فترق وتنجلي وتعمر بنور الإيمان, وهكذا يجب أن يكون أسلوب الموعظة الحسنة من أهم أساليب التجديد للفكر الديني في العصر الحالي, وما ذلك إلا أنه سهل ويسيسر يكون في أي وقت وفي أي زمن, وبالتالي فهو يُساعد على هداية الناس وترسيخ مفاهيم الدين الحنيف في نفوسهم من أقرب الطرق.

المبحث الثالث

أثر أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن في تجديد الخطاب الديني

قال الله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَة وجَادلهُم بالتى هى أحسن...)[١], هذا هو الأسلوب الثالث من أساليب التجديد للفكر الديني, وفي الوقت ذاته هو أسلوب مهم من أساليب الدعوة إلى الله تعالى[٢], إنه الحوار والمجادلة[٣] بالتي هي أحسن وليس بالحسنى فقط, أي: بلا تحامل على المخالف ولا تقبيح, لماذا؟ حتى يطمئن إلى الداعي أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل, ولكنه الإقناع والوصول إلى الحق, وهو بذلك يحفظ للنفس البشرية كبرياؤها, بل عنادها أحياناً, فهى لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق, لماذا؟ حتى لا تشعر بالهزيمة والإنكسار, وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن قيمتها واحترامها وكيانها[٤].

---

(١) سورة النحل من الآية ١٢٥.

(٢) الدعوة الإسلامية أصولها وسائلها أساليبها في القرآن الكريم د أحمد غلوش صـ٧٨٣ ط مؤسسة الرسالة.

(٣) المجادلة في اللغة هي: المحاججة, فيقال جادله جدالا ومجادلة ناقشه وخاصمه, وفى الاصطلاح: هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو بقصد تصحيح كلامه, فهو الخصومة في الحقيقة, ويعني المناقشة بين مختلفين في الرأي بحيث يقارع كل منهما حجة الآخر بحجة ويقابل دليله بدليل, راجع المعجم الوسيط- باب الجيم- مادة جادل ١/١١٦ ومعالم في منهج الدعوة للإمام الجرجاني صـ٢٥ ط دار الفكر.

(٤) المدخل إلى علم الدعوة د محمد أبو الفتح البيانوني صـ٤٥٦ ط مؤسسة الرسالة.

والحقيقة أن الجدال بالتي هي أحسن هو الذي يحفظ لهذه النفس المعاندة قدرها, ويُشعر المدعو- المجادل- أن ذاته مصونة وقيمته كريمة, وأن الداعي لا يقصد سوى كشف الحقيقة قي ذاتها, والاهتداء إليها في سبيل الله لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر.

ومن هنا حذرت السنة النبوية من شدة الحوار والجدل والخصومة فيهما, بل وصفت صاحبها بالمُبْغَض من قِبل الحق تعالى, عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -ﷺ-: (إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الأَلَدُ[١] الخَصِم[٢]")[٣], والمذموم هو الجدال بالباطل والخصومة به فى رفع حق أو إثبات باطل, وهذا النوع من المجادلين أو المحاورين لا تكون خصومته فى الله أو لله ولكنه يفعل ذلك غضباً لنفسه.

ولابد للداعية أن يُدرك أن الدعوة تعني المحاولة العلمية والقولية لإمالة الناس إلى أمر ما[٤], والحوار أحد وسائل تلك الإمالة فهو: مراجعة الكلام وتبادل الآراء للوصول إلى الحقيقة[٥], وهو أهم وسائل الدعوة والتبليغ

---

(١) الألد: هو شديد الخصومة أو الجدل, لسان العرب لابن منظور (٧/٩٤).

(٢) الخَصِم: بفتح أوله وكسر أوسطه, هو: كل متشدد مكثر فى جدله وإن كان محقاً, فهو الذي يصر على الخصام ويرفض الصلح, لسان العرب لابن منظور (٧/٩٤).

(٣) أخرجه الإمام مسلم (٢٦٦٨) كتاب العلم باب فى الألد الخصم, ووافقه البخاري (٢٤٥٧) (٤٥٢٣) كتاب التفسير باب قوله تعالى: (وهو ألد الخصام) وأخرجه الترمذي (٢٩٧٦) والنسائي (٨/٢٤٨).

(٤) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها أساليبها د أحمد غلوش صـ٩٠ ط دار الكتاب المصري.

(٥) الحوار والجدل فى القرآن للشيخ خلف محمد الحسيني صـ٧٧ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

مـع النـاس جميعاً مـؤمنهم وكـافرهم, فكيـف تكـون وسيلة الـدعوة والـبلاغ هـي المقبرة للدعوة والدعاة, ولـو استقرأنا تـاريخ الأنبيـاء جميعاً لوجدنا أن الحوار والجدل بالحسنى منهجهم جميعاً.

إذن فالحوار أو الجدل مقيد فـي البدايـة والنهايـة بهدفين نبيلين: فهو مقيـد فـى الغايـة بـأن يكـون الحـق غايتـه, وهـو مقيـد فـى الوسيلة بـأن تكـون بالحسنى[1], فـلا بـأس فـي الإسـلام مـن تعـدد الآراء, لمـاذا؟ حتـى تتسـع الـدائرة التي يتحرك فيها المكلَّفون تيسيراً وعوناً, ذلك بأنـها ليست أهواء تتنـاطح, بيد أنـهـا زهـور تتكامـل وتـتلاقح, زهـور متعـددة الألـوان والطعـوم والـروائح, إذن لا خـلاف علـى ضـرورة الاخـتلاف لكـن المهـم كيـف تتفـاهم؟ كيـف نوسـع قلوبنـا وعقولنا لنستقبل آراء الآخرين بحفاوة؟.

لقد كان الصحابة يختصمون- يتجادلون ويتناقشون- فهم بطبيعتهم أنـاس مـن البشـر مهمـا كـانوا, اختلفـت منـازعهم فاختلفـت زوايـا الرؤيـة عنـدهم لكن خلافهم لـم يكن حـول دنيـا تُصـاب أو امـرأة تُنْكَح, بـل كـان خلافـاً لا يُفسد للـود قضـية, يسـتهدف دائمـاً نصـرة الحـق فـوق كـل اعتبـار, وتتـوارى فيـه ذات الإنسـان فـلا تـدخل فـي دائـرة الجـدال ليكـون البحـث جـاداً عـن الصـواب فـي كـل موضوع.

وبالتـالي فليسـت هنـاك عـداوة شخصـية بـين الداعيـة المُحـاور وبـين الآخر, ذلك أن المحور الذي يدور حولـه الجدل هو الحق, وهـو عليـه يصـالَح ويُخَاصَم, وهو المقبول من أي طرف, حتى وإن كان المُقِر به مُلْحِداً, عن أبـي هريرة -رضي الله عنـه- قـال: قـال رسـول الله ﷺ : (أَصْدَقُ كَلِمَـةٍ قَالَـهَا شَـاعِرٌ

([1]) منـاهج الـدعوة وأسبابها د علـي جريشـة صــ١٦١ ط الأولـى سنة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م بتصرف, ومن أجل حوار لا يفسد للود قضية د محمود عمارة صـ٤ ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

كَلِمَةُ لَبِيد[١]: ألا كُلُّ شيء مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ)[٢], وفي رواية: (أَشْعَرُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَتْ بِهَا العَرَبُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: ألا كُلُّ شيءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ)[٣], ذلك أنه أنشد النبي ﷺ ببيتين من الشعر, فقال له النبي ﷺ في الأول: "صدقت" وقال له في الآخر: "كذبت" "ألا كُلُّ شيءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ" قال: "صدقت" "وَكُل نَعِيمٍ لا محالة زَائِل" قال: "كذبت, نعيم الجنَّة لا يزول".

وفي الحديث إشارة إلى أن الحق يُقبل حتى لو كان من كافر إذا قال به, وأما مَن قال بالباطل فقوله مردود وإن كان مسلماً, يعني: أن العبرة بالقول لا بالقائل, فالقضيَّة كامنة في البحث عن الحقيقة, وليس أدل على ذلك مما حكاه القرآن الكريم عن حديث رسول الله ﷺ لمشركي مكة في قوله تعالى: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[٤], مع الوضع في الاعتبار كيف ساق الرسول ﷺ من خلال حواره بكلام غير صريح تكذيب المعاندين وإبطال

(١) هو الشاعر: لبيد ابن سلام, وكان من عشيرة ذات سيادة وشرف, وأبوه ربيعة من عشيرة بني جعفر, وأمه تامره بنت زنباع العَبْسية, والحق أن للبيد هذا بعد إسلامه أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية, وظلَّ لبيد بعد إعلانه إسلامه واعظاً في قومه يُذكرهم البعث والجنة والنار, ويقرأ لهم القرآن, وما زال بينهم حتى خطَّ عمر -رضي الله عنه- الكوفة فنزل بها وأقام بها إلى أن توفاه الله -تعالى- في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة. سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١٢٦/٥), وتاريخ الأدب العربي (٢) (العصر الإسلامي) د شوقي ضيف صـ٨٩-٩٩ ط دار المعارف, وطبقات ابن سعد (٢٠/٦)..

(٢) أخرجه الإمام البخاري رقم (٣٨٤١) كتاب أيام الجاهلية باب مناقب الأنصار, والحديث طرفاه في (٦١٤٧) (٦٤٨٩).

(٣) أخرجه الإمام مسلم رقم (٢٢٥٦) كتاب الشعر (١٤/٨) ط دار الحديث بالقاهرة.

(٤) سورة سبأ من الآية ٢٤.

قولهم, حيث إن كلمة: "هدى" تعود على: "إنا", وكلمة: "في ضلال مبين" تعود على: "إياكم" ولا عجب فقد أُوتي ﷺ جوامع الكلم.

وعليه فلابد من تقديم فكر ديني جديد يحمل الداعية المجادل فيه روح الإسلام في ساحة الجدل, الإسلام السمح الودود, والذي يُواجه مُخالفيه بهذه الروح وهذا الود, فلابد أن يكون المُحاور المسلم مُنْصتاً لُمُحَدِّثه, جيِّد الاستماع, لا يُقاطعه حتى ينتهي من حديثه, ثم يُقيم الحجة ويذكر الدليل, ومن وصية الحسن بن علي –رضي الله عنهما– لابنه وهو يعظه: "يا بني إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول, وتعلَّم حُسن الإستماع كما تتعلَّم حُسن الكلام, ولا تقطع على أحد حديثاً مهما طال حتى يُمسك", ولله در القائل:

إنَّ بَعْضَ القولِ فَنٌّ فاجْعَل الإصْغَاءَ فَنَّاً

كما أنه لابد على الداعية المسلم –المُحاوِر– أن يتسلَّح بسلاح الصبر الجميل في مواجهة المدعويين, والمدعو المُشاكِس بصفة خاصة, فعندما يكِل عقل المدعو ويتجمَّد فكره ويعجز عن السباحة في المسافات الطويلة, فعلى الداعية أن يعتزله, وأن يتوقف عن الاسترسال في حوار عقيم, ولا يُعد هذا هروباً من الجدل, لكنَّه التوقف الموقوت للتزود بالوقود, تأهباً لاستئناف اللقاء من جديد, وهكذا فعل إبراهيم الخليل –عليه السلام– (وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا)[1], لقد انطلق –عليه السلام– هنا من مشاعر الإشفاق لا من مشاعر الكراهية, على ما يقول الشاعر:

وَأَخْشَى الليَالي الْغَادِرَاتِ عَلَيهِمُ لأنَّ الليَالي غَير مَأمُونة الغَدْر

(¹) سورة مريم الآية ٤٨.

إن من حكمة الداعية إلى الله تعالى أن يستخدم في توجيه خطابه الديني كل أسلوب في موضعه المناسب له, وهناك من المدعوين مَن لا يُجدي معه من الأساليب الدعوية إلا أسلوب الجدل, ليؤثر فيه الداعية بدعوته إلى الله تعالى ويحمله على ما يُريد, فلا يستخدم أسلوب الجدل إلا مع المجادل الذي ينفع معه الجدل, ويُثمر معه الحوار, ليتحقق النفع, وتُجنى الثمرة, بشرط أن يخلو من المخاصمة, وأن يكون الهدف منه هو الوصول إلى الحقيقة, ليقوم على موضوعية وحيادية, لا انحياز فيها إلا لوجهة الحق.

ولابد للداعية إلى الله تعالى أن يُدرك أن الجدل أمر فطري جُبل عليه الإنسان, بل كان الإنسان أكثر شيء جدلاً, وبالتالي فيجب على الداعية أن يُوجِّه خطاباً دينيَّاً جديداً يُراعي آداب الجدل والحوار, ليصل إلى تصحيح النتيجة وسلامة الأثر, وأن يقوم جدله على أساس من الدليل والبرهان, وإقامة الحجة وإفحام الخصم, ولا يترك للمجادل حجة يتمسك بها أو شبهة يختلقها إلا فنَّدها, وأقام عليها الدليل والبرهان, وهذا يستوجب عليه العلم والمعرفة لئلا يكون من الذين يجادلون بغير علم, فيَضلون ويُضلُّون.

ولعلَّه مما سبق يتضح لنا جليَّاً الفرق بين الخطاب الديني المنشود, الذي ينبغي أن يكون, وبين آفة الفكر الديني اليوم وسلبيَّاته, قل فيه ما شئت تحت مظلَّة التقليد الأعمى, أو التعند الشديد والتعصب للهوى, أو آفة الغرور والكبر, أو الفهم الخاطئ المغلوط, والحقيقة أن القائمين بتوجيه الخطاب الديني لابد أن يُدركوا أن الجدال كالنزال, كلاهما كرٌّ وفرٌّ, ودفاع وهجوم, وذاك الكرُّ والفرُّ, وهذا الدفاع والهجوم ما يزال ساري المفعول بين المحقِّين والمُبطلين إلى يوم الدين, الأمر الذي يفرض علينا بيانه إرادة الانتفاع به اليوم, وتأمل ما يسفر عنه من دروس, يزداد به الباطل افتضاحاً, بقدر ما يتبخَّر الحق بها اتِّضاحاً.

المبحث الرابع

أثر أُسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تجديد الفكر الديني

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أسلوب مهم من أساليب الدعوة إلى الله تعالى, ساقه القرآن على سبيل الوجوب[١], قال تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[٢], وقال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[٣], فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية.

عن عائشة- رضي الله عنها- قال رسول الله ﷺ: (إنَّه خُلقَ كُل إنسانٍ مِن بَني آدمَ على ستينَ وثلاثمائة مَفْصلٍ, فمَن كبَّر اللهَ, وحمدَ اللهَ, وهللَ اللهَ, وسبحَ اللهَ, واستغفرَ اللهَ, وعزلَ حجَراً عَن طريقِ الناسِ وأمرَ بمعروفٍ أو نهى عَن منكرٍ, عددَ تلكَ الستينَ والثلاثمائة السُلامى[٤] فإنَّه يمشي يومئذٍ وقد زحزحَ نفسَه عَن النَّارِ)[٥], وفى رواية: (فإنَّه يُمسي)[١],

---

([١]) مَن الذي يُغير المنكر وكيف؟ د محمود عمارة صـ٥٤ ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

([٢]) سورة آل عمران من الآية ١٠٤.

([٣]) سورة التوبة من الآية ٧١.

([٤]) السُلامى: بضم السين المهملة وتخفي اللام وهو المَفْصل وجمعها: سُلامَيات, بفتح الميم وتخفيف الياء. مسلم بشرح النووي ١٠٢/٤ ط دار الحديث القاهرة.

([٥]) أخرجه الإمام مسلم (١٠٠٧) كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف, وأخرجه الإمام البخاري (٢٩٨٩) وأبو داود (٥٢٤٣).

والحديث فيه إشارة إلى ثبوت حكم الصدقة فى كل فرد من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, ولذلك نكَّره, والثواب فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر منه فى التسبيح والتحميد والتهليل[٢], لماذا؟ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية, وقد يتعين, ولا يتصور وقوعه نفلاً, والتسبيح والتحميد والتهليل نوافل, ومعلوم أن أجر الفرض أكثر من أجر النفل, وقد قيل: إن ثواب الفرض يزيد على ثواب النافلة بسبعين درجة.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين, ومن أجله ابتعث الله النبيين أجمعين, ولو طوي بساطه وأُهمل علمه وعمله لتعطلت القيم والمبادئ, وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد وهلك العباد, واستولت على القلوب مداهنة الخلق, وانمحت عنها مراقبة الخالق, واسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات, إلا إذا عزَّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه فى الله لومة لائم, مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان على إماتتها.

قال النبي ﷺ: (مَن رَأى مِنكم مُنكرًا فليُغَيِّرهُ بيدِه, فإنْ لَم يستطعْ فبلسانِهِ, فإنْ لَم يستطعْ فبقلبِهِ وذلكَ أَضْعَفُ الإيمانِ)[٣], وبذلك يبقى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كأحد أساليب الدعوة محوراً مهماً من محاور تجديد الفكر الديني, وأساساً من أسسه التي يحتاج إليها الداعية المسلم اليوم

(١) أخرجه الإمام مسلم (١٠٠٧) كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي صـ٤٢٨ ط دار الدعوة الإسلامية بتصرف.

(٣) أخرجه الإمام مسلم رقم (٤٩) كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان, وأخرجه الترمذي (٢١٧٢) والنسائي (١١١/٨) وأبو داود (٤٣٤٠) وابن ماجة (٤٠١٣).

في توجيه خطابه الديني, للإصلاح من الحالة التي يعيشها الخطاب الديني الآن بين الركود والجمود.

هذا بالإضافة إلى بعض الأسس الأخرى التي تساعد على تغيير المنكر, والتقدم بالمجتمع المسلم إلى الأمام, ومنها: توجيه خطاب ديني فعَّال يُساعد على تربية النشء تربية إسلامية, وتربية المجتمع على منهج الله, ويدعو إلى مزيد من العمل والإنتاج, وبهذه الأمور يوجد جيل جديد يحمل رسالة الإسلام فكرة واضحة في رأسه, وعقيدة راسخة في قلبه, فلا يستطيع أحد أن يستقطبه تحت أي مُسمًّى أو دعوى.

ولأهمية الدور الذي يقوم به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحث والتوجيه, فقد جاء الحديث النبوي "السابق" يحمل مراتب التغيير, لماذا؟ حتى يضمن للمجتمع أمنه واستقراره وعدم حدوث فوضى, فجاءت مرتبة التغيير باليد, وهى واجبة على السلطان أو صاحب الولاية الشرعية, ثم مرتبة التغيير باللسان وهذه تكون للعلماء في غير الأمور الجلية, لماذا؟ لأنهم هم الذين يُمَيِّزون المعروف فيأمرون به, ويعرفون المنكر فينهون عنه, ويتخذون لكل حالة أسلوبها من اللين أو الشدة, والرفق أو العنف, ويقدرون الوقائع ويعرفون آراء الفقهاء واختلافهم, وهم الذين يمكنهم حملها على محملها الصحيح, ثم مرتبة التغيير بالقلب وهى حظ العامة من الناس وإن كانت أقله ثمرة.

والحقيقة أن الدعوة في حياة الداعية أعز عليه من نفسه وأهله, وبوحي منها تكون دوافعه وأهدافه, ومصلحتها وازدهارها شغله الشاغل, وقطب الرحى في كل تحرُّكاته, وقد تفرض عليه الظروف رؤية المنكر يُرتكب علانية بَيْدَ أنه لا يُواجهه مباشرة, لا استسلاماً له, ولكن لمصلحة الدعوة ذاتها, فيلجأ

إلى "التوجيه العام" الذي لا يلمس الانحراف نصاً, بل يدور حوله كالسيل فيحتويه, ليصل في النهاية –بالحكمة– إلا ما لا يمكن الوصول إليه بالشدة.

لقد كان ﷺ يقول في مثل هذه الحال: "ما بال أقوام يقولون كذا وكذا.."[١], وليس هذا تهاوناً بقدر ما فيه من حكمة في معالجة الموقف بما هو أهله من تدبير, فربما كان الجاني حاد المزاج فتلجئه الشدة إلى التمادي في الشر تحدِّياً, وربما كان مرموقاً في قومه ويأنف أن تُجدع نفسه علانية, فيعرض عن الحق وإن وضحت دلائله, وربما كان جاهلاً فيحتاج إلى فرصة للتعديل من حاله, ناهيك فوق هذا كله الإبقاء على شخصيَّة الدعية –أحياناً– مهيبة, بعيدة عن معركة لا يُساوي الإنتصار فيها بعض مآسيها[٢].

كما أن الداعية الذي يُريد أن يُوجِّه خطاباً دينيَّاً منشوداً, من خلاله يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر, لابد أن تتوفر فيه عدة آداب[٣], لماذا؟ حتى يجني ثمرة أمره ونهيه, منها: أن يكون عالماً بما يأمر به وينهي عنه من جهة الأحكام والأدلة, وأن يكون ورعاً, لماذا؟ لأن الورع يجعله يعمل بما يعلم, فيقف عند حدود الله في أمره ونهيه, بغير تزايد وغرور, أو اعتداء وإزاء بغير وجه حق, وأن يكون حَسن الخُلق, لماذا؟ لأنه بحُسن خُلقه يقدر على ضبط شهوته وغضبه وإلا فإنه يضر نفسه وغيره, كما أن على الآمر الناهي أن يُحسن النية لينال رضا الله وثوابه, وأن يقطع الأمل في نفع الناس له ودفعهم الضر عنه, متوكلاً على الله تعالى في كل أمره فهو حسبه, وأن

---

(١) أخرجه الإمام أبو داود رقم (٤٧٨٨) كتاب الأدب باب في حُسن العشرة.

(٢) نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية د محمود عمارة صـ٢٥٣–٢٥٥ ط دار التراث العربي, بتصرف.

(٣) السلوك الاجتماعي فى الإسلام للشيخ حسن أيوب صـ٤٧٢–٤٧٣ بتصرف, ط دار البحوث العلمية بالكويت.

يتصف الداعية بصفتي اللين والرفق, وأن يُراعي في أمره ونهيه المصالح والمفاسد, وأن يستخدم هذا الأسلوب قدر المستطاع, وهنا تكن الثمرة المرجوة, ويكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسلوباً ناجحاً من أساليب تجديد الفكر الديني.

عن ابن عباس-رضي الله عنه-: أنه جاءه رجل فقال: (يا ابن عباس, إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر, قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو, قال: إن لم تخش أن تُفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل, قال: وما هي؟ قال: قوله عز وجل: (أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ)[1], أَحَكَمت هذه؟ قال: لا, قال: فالحرف الثاني؟ قال: قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ)[2], أحكمت هذه؟ قال: لا, قال: فالحرف الثالث؟ قال: قول العبد الصالح شعيب -عليه السلام-: (وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ)[3], أحكمت هذه؟ قال: لا, قال له ابن عباس: فابدأ بنفسك)[4].

إن في هذا الحوار الذي دار بين ابن عباس وهذا الرجل نلمح بعضاً من الخصائص النفسية التي تُرشِّحه ليكون آمراً ناهياً, والتي ترسم في أذهاننا صورته من أجل أن نقيس عليها, ونقتبس من شُعاعها ومضات تُعين الفاقهين على حُسن اختيار الدعاة إلى الله تعالى, إن هذا الرجل واحد من الثائرين على المجتمع بعاداته وتقاليده, وهو أحد الشاعرين بما عليه من مسئولية تُجاه

([1]) سورة البقرة من الآية ٤٤.

([2]) سورة الصف الآيتان ٢-٣.

([3]) سورة هود من الآية ٨٨.

([4]) تفسير ابن الكثير "تفسير القرآن العظيم" للإمام ابن كثير (جـ١ صـ٨٥-٨٦) ظ مكتبة أسامة الإسلامية.

تغييره سيراً به إلى الأفضل, وفي الوقت ذاته يُريد أن ينقض على هذا العمل الشاق انقضاض الأسد الذي لم يُحسن تقدير أبعاده ففرَّرت فريسته, وخسر صيده السمين حتى عاد وهو حسير, من أجل هذا أراد أن يعرف أصول هذا التوجيه من أهله الراسخين فيه, انطلاقاً من قوله تعالى: (فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[1].

ومن ثَّمَّ فهو يسأل أهل الذكر في شخص ابن عباس -رضي الله عنه- لماذا؟ كي ينال بموافقته شرف الانتساب إلى جماعة الدعوة إلى الله تعالى, إيماناً منه بخطورة الوظيفة التي لا ينبغي الخوض فيها اعتباطاً, وشعوراً من ابن عباس -رضي الله عنه- بخطورة هذا الموقع وأهميته, لم يعطِ الرجل الإذن سهلاً ميسوراً, لكنَّه يعقد للفتى امتحاناً عسيراً, حتى إذا تخطَّاه سمح له أن يُهيئ نفسه للنزال.

ولقد كان منطق ابن عباس موحياً بأهميَّة الدعوة التي لا يطيق أعباءها إلا أكفَّاؤها من الرجال, حين قال بأسلوب الاسستفهام المشبع بروح الإشفاق على هذا الرجل: أوَ بلغت ذلك؟ ويُجيب الرجل بأسلوب المريد المتواضع, العارف بقدر نفسه: أرجو, إنه لا يحسم القضيَّة بالتأكيد على قدرته, بيد أنه -وقد أحس من استفهام ابن عباس بأهمية الوظيفة- يُعلِّق الأمر بالرجاء أن يكون عند حُسن الظن, إذا ما أُتيحت له فرصة العمل تحت لواء الدعوة.

إن ابن عباس -رضي الله عنه- يُواجه الرجل بمسئولية حين يضعه إزاء آيات من كتاب الله عز وجل ليرى نفسه في مرآتها, ثم يتحسس قدرتها بعد ذلك على النهوض بأعبائها, لماذا؟ حتى لا يُفاجأ بوضع لم يستعد له,

---

([1]) سورة الأنبياء من الآية ٧.

فيبوء عمله في الدعوة بالفشل, وهنا تخسر الدعوة قضيَّتها حين لا يتمثَّلها رجالها.

فهو يذكر للرجل آيات من القرآن الكريم تحمل بين طيَّات حروفها تشديداً نكيراً على قوم يأمرون بالمعروف صاعدين بغيرهم إلى الكمال, بينما ينسون أنفسهم فلا يحملونها على هذا المعروف, ويُلاحظ أن ابن عباس –رضي الله عنه– لم يكن يسأل الرجل: أَحَفظت هذه الآية؟ أو أَفَهمتها؟ ولكنَّه كان يسأله: أَحَكمت هذه؟ يعني: أَفَهمتها فهماً يقودك إلى تطبيقها عملاً وسلوكاً.

ذلك أن أهم ما في القضيَّة أن يكون الداعية إلا تعالى عنواناً للدعوة, يفعل ثمَّ يقول, وذلك هو موطن الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ الذي أمر ونهى وكان أول الملتزمين, انطلاقاً من قوله تعالى: (قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ)[1].

وفي نهاية المطاف يُوجِّه ابن عباس –رضي الله عنه– الرجل المتقدِّم للعمل في ميدان الدعوة آمراً وناهياً إلى أن يبدأ بنفسه أولاً, ولقد أراح الرجل حين أبدى له عيوبه, وأراح الدعوة ذاتها من عبء ثقيل عليها.

إننا إذا أردنا أن نُجدِّد الفكر الديني لنصل به إلى الجطاب الديني المنشود لابد أن يُدرك الدعاة أهمية أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, وفهمه فهماً حقيقيّاً, فلسنا في احتياج إلى دعاة يُنمِّقون الكلام كالدرر المنثور, ويتفوَّقون في تصوير واقع المجتمع بعاداته وتقاليده تصويراً بديعاً مشوِّقاً, لكنَّنا في حاجة إلى دعاة يُغيِّرون هذا الواقع إلى الأفضل دائماً, ولن

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ١٦٢–١٦٣.

يتم لهم ذلك ولن يقدروا عليه إلا إذا غيَّروا ما بأنفسهم لتُستكمل عُدة الكفاح, انطلاقاً من قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ)[١].

فما لم تكن أقوال الداعية وأفعاله صادرة من محيطه الروحاني, منبعثة من حياته التي يحياها وراء المادة, كانت أقوالاً لا تمس القلوب بشيء من أسرار الشفاء, وإذا حدث استحسان فهو استحسان الزيف والنفاق, فمتى خلت أفعال الداعية من أقواله فهي أقوال وأفعال لا بركة فيها[٢].

ذلك أن كيراً من الدعاة يقتحمون مجال الدعوة غير متسلِّحين بالخُلُق القويم, ليتمكَّنوا من مباشرة الإصلاح بنجاح, وفاقد الشيء لا يُعطيه, فالذي يقول ولا يفعل دليل حي متحرِّك على أن ما يدعو إليه غير قابل للتطبيق, ناهيك عن أنه يصير حُجَّة في أيدي المنحرفين العابثين الذين يتخذون من أخطاء بعض الدعاة ذريعة يُدافعون بها عن خطاياهم, مما يترتب عليه تورط الدعاة جميعاً –جادِّين أو هازلين– ليعيش الحق في عُزلة, يعني: في أزمة ثقة بين الدعاة والناس, وكان من الممكن أن يتفادى الدعاة ذلك كله لو أنهم وضعوا أقدامهم على نقطة البداية, فبدأوا بتزكية أنفسهم مُطبَّقين مبادئ الدعوة الإسلامية في حياتهم الخاصة والعامة, آخذين بأنفسهم إلى الفضائل, نائين بها عن الرذائل, ومتى تمَّ له ذلك كان مدخلاً كريماً إلى مواطن الإقناع في قلوب الناس الذين ينسجون على منوالهم طائعين.

إن أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غالباً ما يكون بالقول, كما أنه قد يكون بدعوة غير المسلم إلى الإسلام, أو دعوة المسلم العاصي إلى طاعة الله تعالى والإقلاع عن مخالفة شرعه, كما أن هذا الأمر والنهي بأنواعه قد يكون موجهاً إلى شخص بعينه أو إلى عدة أشخاص أو إلى طائفة من

---

(١) سورة الرعد من الآية ١١.

(٢) تذكرة الدعاة للشيخ البهي الخولي صـ٢١٣ ط مكتبة دار التراث, بتصرف.

الناس, أو بشكل دعوة عامة إلى الناس لاتباع ما جاء به الإسلام وترك ما يُخالفه, لتتحقق أهداف الدعوة الإسلامية وغاياتها, وفي التخاذل عن القيام بهذا الأسلوب مزيداً من الركود والجمود.

وبذلك يكون هذا الأسلوب من الأساليب التي تُستخدم مع كل الأصناف من المدعوين, ويبقى له أثره الواضح في تجديد الفكر الديني.

المبحث الخامس

أثر أسلوب القدوة الحسنة في تجديد الفكر الديني

إن القدوة الحسنة كأحد أساليب الدعوة هي من الدعوة بمكان, ولقد جاء الأمر بها في القرآن الكريم في أكثر من موضع, بل لقد أُمر بها الداعية الأول ﷺ وباتخاذها أسلوباً ومنهجاً, لتكون أسلوباً من أساليب التبليغ بالسيرة الحسنة[١], قال تعالى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ)[٢], والمعنى: إن الآية توجيه حكيم للداعية الأعظم ﷺ بالإقتداء بهؤلاء الأتقياء الكرام- من الأنبياء والمرسلين- الذين بقوا دون موكب الإيمان, وهم الذين هَداهم الله, وهُداهم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله ﷺ ومن آمن به, فهو أمر للداعية الأول ﷺ باستخدام هذا المنهج والأسلوب كأحد أساليب الدعوة إلى الله تعالى, وإذا كان هذا الأمر للرسول ﷺ وأمته تَبَعٌ له فيما يشرعه ويأمرهم به, فهو أمر للدعاة من بعده.

وإذا كانت الآية السابقة أمر لرسول الله ﷺ بالإقتداء بالسابقين فقد أُمرنا (والدعاة منا على الأخص) بالإقتداء برسول الله ﷺ قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[٣], والآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله.

---

(١) يُنظر في هذا: أصول الدعوة د عبد الكريم زيدان صـ٤٦١ ط مؤسسة الرسالة ناشرون, ووسائل الدعوة الإسلامية في عصر النبي ﷺ وأثرها في العصر الحاضر د يوسف المرشدي صـ١٦١ ط: الأولى ١٤٣١هـ بدون.

(٢) سورة الأنعام من الآية ٩٠.

(٣) سورة الأحزاب من الآية ٢١.

وإذا كانت (الحسنى) شرط أساسي في الدعوة بالموعظة والجدال, فهي كذلك شرط في الإقتداء والتأسي, وهذا هو السر في نعت الأسوة بالحسنة في الآية الكريمة, لماذا؟ لأن الأسوة أو القدوة بدون أن تكون حسنة, هي على الدعوة وليست لها, ونحن مأمورون بمخالفة ما يخالف الدعوة, وهذا في حق الداعية أشد, وهذا هو سر الاستثناء في قوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ...)[١], وهو ما جاء التأكيد عليه بعد هذه الآية بأن قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[٢], وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً, لأن هذه الأسوة المستثنية ها هنا هي الأولى بعينها.

ولم تكن السنة النبوية بمنأى عن هذا, فكثيراً ما جاءت أحاديث رسول الله ﷺ تحث على الإقتداء والتأسي به, عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: (كانَت امرأةُ عثمان بن مظعون تخضب[٣] وتَطَّيبُ فتركته, فدخلت عليَّ, فقلتُ: أمشهدٌ أم مغيبٌ؟[٤], فقالت: مشهدٌ, قالت: عثمانُ لا يريدُ الدُنيا ولا يريدُ

(١) سورة الممتحنة من الآية ٤.

(٢) سورة الممتحنة من الآية ٦.

(٣) الاختضاب: معناه التزيين بالحنَّاء. لسان العرب لابن منظور (٩٨١/٦).

(٤) أي: أزَوجك شاهد أم غائب؟ والمراد: إن ترك الخضاب والطيب إن كان لأجل غيبة الزوج فذاك, وإن كان لأمر آخر مع حضوره فما هو؟ فأخبرتها أن زوجها لا حاجة له بالنساء, فهي فى حكم من لا زوج لها, الأمر الذي استنكرته عائشة- رضي الله عنها- وأعلمته لرسول الله ﷺ فلقنه النبي ﷺ درساً دعوياً تربوياً في التأسي والإقتداء به ﷺ وهو الذي كان يتزوج النساء في حين أنه ﷺ كان أخشى الناس وأتقاهم لله. يُنظر جامع مسانيد النساء لإبراهيم الجمل جـ٢صـ١٣٧ بتصرف يسير.

النساءَ, قالت عائشةُ: فدخلَ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ فأخبرتُه بذلكَ, فلقي عثمانَ فقالَ: يا عثمانُ تؤمِنُ بما تؤمِنُ بهِ؟ قالَ: نَعَمْ يا رسولَ اللهِ, قالَ: أي رسول الله ﷺ فأُسوة حالكَ بنَا)[1], وفي رواية قالت: (بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى عُثْمَان بن مظعون أَرَغِبتَ عَنْ سُنَّتِي؟ فَقَالَ: لا, وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ, وَلكِن سُنَتَّكَ أَطْلُبُ, قَالَ: فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي وَأَصُومُ وأُفطِرُ وَأَنكِحُ النِّسَاءَ, فَاتَّقِ اللهَ يَا عُثمانُ, فَإِنَّ لأَهلكَ عَليكَ حَقَّاً, وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَليكَ حَقَّاً, فَصُم وأَفطِر, وَصَلِ وَنَم)[2], إنها دعوة إلى التربية بأسلوب التأسي والإقتداء.

وكثيرًا ما كانت مواقفه ﷺ مع الصحابة- رضوان الله عليهم- أسلوباً عملياً من أساليب الدعوة إلى الله تعالى بالقدوة والأسوة, لماذا؟ ليكون ذلك أكثر تأثيراً للدعاة من بعده كلما أرادوا أن يشقوا طريق الدعوة, عن عائشة – رضي الله عنها- قالت: (إنَّ سعد بن هشام بن عامر أرادَ أن يغزو في سبيلِ اللهِ, فقَدمَ المدينةَ فأرادَ أنْ يبيعَ عقاراً له بهَا, فيجعله في السلاحِ والكراعِ[3], ويجاهد الرومَ حتَّى يموتَ, فلمَّا قدمَ المدينةَ لقي أناساً مِن أهلِ المدينةِ, فنهوه عَن ذلكَ وأخبروه أنَّ رهطاً ستة أرادوا ذلكَ في حياةِ نبي اللهِ ﷺ فنهاهُم نبيُّ اللهِ ﷺ وقالَ: أليسَ لكُم فيَّ أُسوةٌ حَسنةٌ)[4].

بل كان الصحابة أنفسهم يستخدمون أسلوب القدوة والأسوة في الإحتجاج به في الكثير من المسائل الشائكة, والتي من خلالها يتضح للسائل

([1]) نيل الأوطار للإمام الشوكاني جـ٧ صـ٣٨٨ ط دار الفكر العربي.

([2]) أخرجه الإمام أبو داود رقم (٦٩٨٥) (٤٨/٢) كتاب الصلاة باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة.

([3]) الكراع: يعني: الخيل, غريب الحديث لابن قتيبة صـ٨٨ ط: لبنان.

([4]) أخرجه الإمام مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه, وأخرجه أبو داود رقم (١٣٤٢) والنسائي رقم (١٩٩/٣).

أمر الدين فى قضيته, ولقد رُوي: (قالت أُم سلمة لعائشةَ: إنَّه يدخلُ عليكِ الغلامُ الأيفعُ[١] الذي ما أُحِبُّ أنْ يدخلَ عليَّ, فقالت عائشةُ: أما لك في رسولِ اللهِ ﷺ أسوةٌ؟ قالت: إنَّ امرأةَ أبي حذيفةَ قالت: يا رسولَ اللهِ إنَّ سالماً[٢] يدخلُ عليَّ وهو رجلٌ وفي نفسِ أبي حذيفةَ منه شيءٌ, فقالَ رسولُ الله ﷺ أرضعيهِ[٣]

---

(١) الغلام الأيفع: هو الذي قارب البلوغ ولم يبلغ, وجمعه: أيفاع, يقال: أيفع الغلام ويفع وهو يافع, صحيح مسلم بشرح النووي ٢٨٩/٥ ط دار الحديث.

(٢) يعنى: سالماً مولى أبى حذيفة -رضي الله عنه.

(٣) قوله ﷺ: (أرضعيه) قال القاضي: لعلها حلبته ثم شربه من غير أن يمس ثديها, ولا التقت بشرتاهما, وبهذا الذي قاله القاضي حسن, ويحتمل أنه عفي عن مسه للحاجة كما خص بالرضاعة مع الكبر, والله أعلم. مسلم بشرح النووي جـ٥ صـ٢٨٩ ط: دار الحديث, ولعل العلة فى الرضاع: هو وجود حرمة الرضاع حيث أن حرمة الرضاع تُحرِّم ما يحرم بالنسب, فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: (يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة) أخرجه مسلم رقم (١٤٤٤) وفى رواية: (حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب) أخرجه البخاري رقم (٥١١١), ولما جاء عمها -رضي الله عنها-: (أَفْلَح بن قُعَيس) وكان عمها من الرضاعة, وأراد أن يدخل عليها حجبته ولم تأذن له حتى أخبرت بذلك رسول الله ﷺ فنهاها أن تحتجب عنه, معللاً ذلك بالحديث السابق, والله أعلم, وقد كانت المسألة موضع استفهام بين العلماء؟ فقالت عائشة وداود: بثبوت: حرمة الرضاع برضاع البالغ كما تثبت برضاع الطفل للأحاديث السابقة, وخالف الجمهور وقالوا: لا يثبت إلا بإرضاع من له دون سنتين إلا أبا حنيفة, فقال: سنتين ونصف, وقال زفر, ثلاث سنين, وفى رواية عن مالك: سنتين وأيام, واحتج الجمهور بقوله تعالى: (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين..) سورة البقرة من الآية ٣٣٢, وبحديث مسلم: (فإنما الرضاعة من المجاعة) أخرجه مسلم رقم (١٤٥٥) وحملوا الحديث الوارد على أنه مختص بسهلة وبسالم, وقد روى مسلم عن أم سلمة وسائر أزواج رسول الله ﷺ أنهم

حتَّـى يـدخلَ عليـكِ)[١], والشـاهد: أن عائشـة –رضـي الله عنهـا– اسـتخدمت أسلوب التأسي برسول الله ﷺ في جوابها واستدلالها.

ومـن هـذا المنطلـق فلابـد للداعيـة أن يُـدرك فـي توجيـه خطابـه الـديني الجديد أن علمه لا ينفعه ولا يُعتد به إلا إذا صان نفسه وعمل بـه, وإلا فشأنه شأن الأنعام التـي لا عقل لهـا, قال تعالى: (أَتَـأْمُرُونَ النَّـاسَ بِـالْبِرِّ وَتَنْسَـوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[٢], فيوم أن تخلَّى الدعاة إلى الله تعالى عن القدوة الحسنة قدَّموا للنـاس فكراً دينيَّاً مشوَّهاً, مفقود فيـه جانـب التأثير والتأثر, مما أصاب الدعوة في مقتل, بل أصبح موضوع الساعة اتِّساع الهـوة بـين الـداعي والمـدعو نتيجـة عنصـر القـدوة المفقـود, وأصـبح الداعيـة بمثابة الطيب الذي يُعالج الجراح وهو منها يئن, طبيب يُداوي والطبيب عليل.

والأحاديث فـي السنة عديدة توضـح أن العبد سوف يسأل عن علمـه مـاذا عمل بـه؟ فإذا لـم يكن قد عمل بـه ولـم يكن قدوة صـالحة للمـدعوين لـم ينفعه علمه, بل قد يُعذب بسبب ذلك عذابًا شديدًا, حيث تقتلـع أمعاؤه ويـدور في النار كما يدور الحمار في الرحى, وما ذلك إلا أنـه أمر بالمعروف ولم يأته,

خالفن عائشـة– رضـي الله عنهـا– فـي هـذا, روى مسـلم عـن أم سـلمة زوج النبـي ﷺ قولهـا: (أبـى سـائر أزواج النبـي ﷺ أن يـدخلن علـيهن أحـداً بتلـك الرضـاعة, وقلن لعائشـة: والله مـا نـرى هـذا إلا رخصـة أرخصـها رسـول الله ﷺ لسـالم خاصـة, فمـا هـو بـداخل علينـا أحـد بهـذه الرضـاعة, ولا رائينـا) أخرجـه الإمـام مسـلم رقـم (١٤٥٤) كتاب الرضاع باب ارضاع الكبير.

([١]) أخرجـه الإمـام مسـلم (١٤٥٣) كتـاب الرضـاع بـاب رضـاعة الكبيـر, وأخرجـه النسائي (٦/١٠٤) وابن ماجة رقم (١٩٤٣).

([٢]) سورة البقرة الآية ٤٤..

ونهى عن المنكر ولم ينزجر عنه, وقديماً قالوا عن القدوة: عمل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل[١].

وهكذا يبقى لأسلوب القدوة أثره الفعال في السبق إلى العمل المنوط به, فأين دعاة اليوم منه اليوم في تجديد خطابهم الديني؟ ولله در القائل:

لا تنه عن خُلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

ومن إيجابيَّات أسلوب القدوة الحسنة في توجيه الخطاب الديني أنه أسلوب له أثره الفعَّال في إقناع غير المسلمين بالدخول في الإسلام عن طواعية, ولا شك فالقدوة هي مدرسة الحياة العملية التي ترسخ في النفوس وتعلق بالأفهام, ومن طبيعة البشر أنهم طُبعوا على الإقتداء ودرجت نفوسهم على التأثر بما يرونه أكثر مما يسمعونه, وقد أولى الإسلام عناية بهذا الجانب السلوكي فبين أثر القدوة وأهميتها في تبليغ الرسالة, ولقد رأينا القرآن الكريم يوجه الرسول -ﷺ- إلى ضرورة الإقتداء بمن سبقه من الأنبياء والرسل في تحملهم للأذى وصبرهم على أقوامهم.

ولم يكن الأمر بالإقتداء قاصراً على الرسول ﷺ وحده فالمسلمون جميعاً -والدعاة خاصة- مطالبون بالإقتداء بكل ما هو حسن وطيب, ومن ثم كان التوجيه الإلهي للمسلمين بالإقتداء برسولهم ﷺ فهو القمة العالية في الخلق والسلوك, فالقدوة عامة تشمل ما حفلت به حياة الرسول ﷺ وما ورد عنه قولاً وفعلاً وسلوكاً, ولقد كان الرسول ﷺ قدوة طيبة لأصحابه يقتدون به

---

(١) والمعنى: أن تأثير رجل بفعله دون قوله أكثر وأقوى في التأثير على الآخر من تأثير ألف رجل بأقوالهم – ما دامت خالفت أفعالهم أقوالهم- والحق: إن القدوة العملية تصيب من قلوب المدعوين قدراً وأثراً, لماذا؟ لما لها من واقعية ومصداقية على أرض الواقع وفي منظور التطبيق العملي, أكثر مما تصيب الكلمة مهما كانت مؤثرة.

في أخلاقه ومعاملاته وسلوكه, بل في جوانب حياته كلها, ومن ثم اعتدلت أخلاقهم وقويت عقائدهم واستقامت حياتهم .

وإذا نظرنا إلى القدوة الحسنة كأسلوب من أساليب نشر الدعوة لرأينا أن القدوة الحسنة التي تحلى بها المسلمون أثرت في نفوس المسلمين, وأثرت أيضاً في غير المسلمين ما لم يستطع السيف أن يؤثره أو يصل إليه, ذلك أن السيف لا يستطيع أن يجبر أحداً على تغيير عقيدته, فهو ما كان إلا أداة للدفاع عن الدعوة والتمكين لنشرها وإزالة العقبات من طريقها, فالدعوة انتصرت على السيف لا بالسيف.

والنفس البشرية إذا اقتنعت بشيء آمنت به ودافعت عنه وان رفضت أمراً فإنه من العسير على أي سلطة مهما كانت أن ترغمها على قبوله لا سيما في جانب العقيدة, وإن سلوك المسلمين الأوائل وما ضربوه للناس من مُثُل عليا وأخلاق إنسانية كريمة وقدوة في القول والعمل هي التي دفعت الكثيرين إلى الدخول في الإسلام, ومَن يُريد المزيد فلينظر إلى ما سجَّله التاريخ الإسلامي من مآثر ومفاخر لسلوك هؤلاء الأعلام, وكيف قادوا أممهم إلى حياة النهضة والحضارة.

إن العلم يُدرك بالبصائر والعمل يُدرك بالأبصار, وأصحاب الأبصار أكثر, وهذا السلوك لم يكن حديثا يقال أو موعظة تلقى على مسامع القوم, وإنما كان سلوكاً عملياً يجد فيه غير المسلمين مدى التطابق بين تعاليم الإسلام وبين الدعاة إليه, فالداعية إلى الله تعالى يطبق على نفسه ما يدعو إليه الناس وتلك هي القدوة الطيبة فى القول والعمل, ليظهر بذلك أثرها في تجديد الفكر الديني.

الخــــاتمـــة:

أولاً: أهم النتائج والتوصيات.

إن منهجيَّة البحث الأكاديمي تفرض على كل باحث عقب الإنتهاء من بحثه أن يذكر في نقاط بسيطة ومحدَّدة ما توصَّل إليه بحثه من نتائج وتوصيات, يُقدِّم من خلالها حُلولاً تُساهم في الخروج من الأزمة قدر استطاعته, يتقبلها مَن كان قلب أو ألقى السمع وهو شهيد, ويغض الطرف عنها كل حاسد أو ناقم أو جاحد..وإليكم الآتي:

أولاً: إنه من منطلق عموم لفظ التجديد في حديث رسول الله ﷺ لابد أن يشمل التجديد للفكر الديني كل القضايا الإسلامية من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق, مع الاحتفاظ على الأصول والثوابث, وهذا التجديد لا تعارض بينه وبين كمال الدين وتمامه.

ثانياً: عدم قبول التراث بكل ما حوى من غث وحشو, وعدم ردِّه بكل ما فيه من جواهر ودرر, بل لابد من التعامل مع تراثنا من خلال متخصِّصين, يقومون بعملية جراحية لكل ما يئن منه تراث الأقدمين ويشوب حركته مع تحدِّيات العصر, ليبقى التراث بعد ذلك نقيَّاً من كل ما يُعكِّر صفوه أو يقدح في نضارته.

ثالثاً: إن المناهج التعلمية اليوم بكل مراحلها لم تسلم من شيء يشوبها, ويُؤثر على دارسيها فكراً ومنهجاً, ولابد من مراعاة تنقية كتب جميع المراحل التعليمية المختلفة من كل شائبة تُؤثر على النشء والشباب على وجه الخصوص, حتى لا يكونوا طعمة سهلة لمَن يُريد استقطابهم تحت أي مُسمَّى.

رابعاً: لا شك في رداءة الخطاب الديني المعاصر, وفشله في التعامل مع تحديات العصر, ولابد من تجديد حقيقي وفعَّال على أرض الواقع, ألا وإن قضية التجديد للفكر الديني هي قضية كل مؤسسات الدولة, وعلى وجه

الخصوص المؤسسات الدعوية, وعلى الأخص مؤسستي الأزهر والشريف ووزارة الأوقاف على نحو ما فصَّلنا سابقاً.

خامساً: إن المعالجات التأصيلية للقضايا المختلفة في الاعتقاد والفقه والفكر والآداب والسلوك لم تعد من هوامش الإهتمامات, بل أضحت مطلباً ضروريّاً ومُلحاً للإنطلاق والتحرر من الركود والجمود, وإن الكشف عن جذور التطرف والعنف ومعرفة أسبابهما هو موضوع الساعة, ومن وجهة نظري هو من أشد الموضوعات خطورة وأثراً وأجدرها بالدرس المتأني للقضاء عليه من خلال فكر ديني جديد.

سادساً: لابد من تقديم فكر ديني جديد يتسم بالعديد من السمات التي تُطفي عليه جوهر الإسلام وتعاليمه السمحة, ولقد ركَّزت خلال البحث على أهم هذه السِّمات التي لابد من مراعاتها عند تجديد الفكر الديني, فلابد من توجيه خطاب ديني عالمي ووسطي وإنساني وإيجابي وواضح وسهل يُراعي مطالب العصر وتحدِّياته.

سابعاً: إن وسائل توجيه الخطاب الديني اليوم اختلفت عن سابقه, فلم تعد تقتصر على خطبة الجمعة فقط, بل ظهرت العديد من الوسائل الدعوية التي تُواكب العصر وتُسايره, ولو أن الدعاة إلى الله تعالى فعلوا ما يُعظون به وأحسنوا توظيف أساليب الدعوة الإسلامية على نحو ما سبق بيانه لخدموا بذلك قضيَّة تجديد الفكر الديني, ولقدَّموا خطاباً دينيَّاً يجمع بين الأصالة والمعاصرة.

وأخيراً:

إن بحثي هذا هو خطوة أخطوها على باب العلم والمعرفة, فلست سوى باحث أعياه طول السفر, وأساتذته هم زاده وباب تقواه, وهذا بحثي أُقدِّمه بين يدي أساتذتي الذين هم أساطين العلم وشموسه المشرقة, والأستاذ دائماً سعيد

بتلميذه, وهو أفرح الناس به, يُقِيل عَثرته, ويستر سوأته, فعذراً إن كنت قصَّرت, والحمد لله إن كنت وفِّقت, والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الباحث/

عادل الصاوي أبو زيد

ثانياً: ثبت المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم:

ثانياً: كتب السنة وشروحها:

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣- ٨٥٢هـ) ط دار الحديث القاهرة.

* صحيح مسلم بشرح النووي تحقيق وفهرسة عصام القبابطي, حازم محمد, عماد عامر, ط دار الحديث القاهرة.

* سنن أبي داود –الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ٢٠٢- ٢٧٥هـ- ط دار الباز للنشر والتوزيع.

* السنن الكبرى للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخرساني النسائي تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ط مؤسسة الرسالة بيروت ط الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

* مسند الإمام أحمد بن حنبل ط دار الفكر العربي, بيروت المكتب الإسلامي.

* نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار للإمام الشوكاني بدون.

* شرح الأربعين النووية للإمام النووي والإمام ابن دقيق العيد, والإمام ابن العثيمين تحقيق محمد بن السعيد الذين ط مكتبة أولاد الشيخ للتراث.

ثالثاً: كتب التفاسير:

* تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام الطبري ط دار الريان للتراث القاهرة سـ١٩٨٨م.

* تفسير ابن كثير "تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير" ط مكتبة أسامة.

* تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن الكريم" للإمام القرطبي ط دار الريان التراث القاهرة سـ١٩٨٨م.

* تفسير التحرير والتنوير للإمام بن عاشور ط الدار التونسية للنشر.

* التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" للإمام الفخر الرازي ط المطبعة المصرية سنة ١٣٥٤هـ- ١٩٣٥م.

* تفسير الظلال "في ظلال القرآن" للشيخ سيد قطب ط دار الشروق القاهرة ١٩٨٩م.

رابعاً كتب الفقه الإسلامي:

* الموسوعة الفقهية ط وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية, الكويت, ط: الأولى.

* مظاهر التيسير ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية د فرج على الفقيه حسين ط مكتبة قتيبة ببيروت لبنان ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

* رفع الحرج في الشريعة الإسلامية للأستاذ عدنان محمد جمعة ط دار الإمام البخاري دمشق.

* الرخص للفقيه د محمد الشريف الدحموني ط مؤسسات عبد الكريم عبد الله, تونس.

* تبيين المسالك لعبد العزيز آل مبارك ط دار الغرب الإسلامي.

* القواعد والضوابط الفقهية عند ابن تيمية ط مكتبة الحاكم بيروت.

* صحيح فقه السنة وأدلته وتوضيح مذاهب الأئمة, للإمام أبى مالك كمال بن السيد سالم.

* مجموع الفتاوى لابن تيمية ط الرئاسة العامة للبحوث الإسلامية بالسعودية.

* إعلام الموقعين للإمام بن القيم ط بيروت سنة ١٩٧٣م.

خامساً كتب الدعوة الإسلامية:
* المدخل إلى علم الدعوة د محمد أبو الفتح البيانوني ط مؤسسة الرسالة.
* أصول الدعوة د عبد الكريم زيدان ط مؤسسة الرسالة.
* منهج الدعوة في العهد المدني د حسن عبد الحميد حسن ط بدون.
* الدين العالمي ومنهاج الدعوة إليه لفضيلة الشيخ عطية صقر ط الثالثة القاهرة ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.
* الدعوة الإسلامية د أحمد غلوش ط مؤسسة الرسالة.
* حكمة الدعوة للأستاذ رفاعي سرور ط الحرمين.
* فقه الدعوة د جمعة الخولي ط: بدون.
* فقه الدعاة للشيخ سعيد عامر ط القاهرة.
* نزهة في عقول الآخَرين د محمود عمارة ط مكتبة الإيمان.
* الحكمة فى الدعوة إلى الله تعالى للشيخ سعيد القحطاني ط بيروت.
* فقه الدعوة د جمعة الخولي ط بدون.
* معالم في منهج الدعوة للشيخ صالح بن عبد الله بن حميد ط الأندلس الخضراء.
* هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ط الاعتصام.
* الدعوة الإسلامية أصولها وسائلها أساليبها في القرآن الكريم د أحمد غلوش ط مؤسسة الرسالة.
* معالم في منهج الدعوة للإمام الجرجاني ط دار الفكر.
* الحوار والجدل فى القرآن للشيخ خلف محمد الحسيني ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
* مناهج الدعوة وأسبابها د علي جريشة ط الأولى سنة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

* من أجل حوار لا يفسد للود قضية د محمود عمارة ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

* مَن الذي يُغير المنكر وكيف؟ د محمود عمارة ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

* نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية د محمود عمارة ط دار التراث العربي

* تذكرة الدعاة للشيخ البهي الخولي ط مكتبة دار التراث.

* وسائل الدعوة الإسلامية في عصر النبي ﷺ وأثرها في العصر الحاضر د يوسف عبد الحميد المرشدي ط: الأولى ١٤٣١هـ بدون.

* التراث الإسلامي بين التقدير والتقديس د بكر زكي عوض "سلسلة القضايا الإسلامية" ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد (١٢٥) القاهرة ١٤٢٦هت٢٠٠٥م.

* تجديد التفكير الديني في الإسلام, ترجمة عباس محمود ط القاهرة ١٩٦٨م.

* التجديد من خلال المناسبات د بكر زكي عوض ط وزارة الأوقاف في كتابها "دليل الإمام إلى تجديد الخطاب الديني" القاهرة سنة ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

* التجديد من خلال خطبة الجمعة د بكر زكي عوض ط وزارة الأوقاف في كتابها "دليل الإمام إلى تجديد الخطاب الديني" القاهرة سنة ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

* التفكير فريضة إسلامية للأستاذ عباس محمود العقاد ط مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٨م.

* الخصائص العامة للإسلام د يوسف القرضاوى ط. مكينة وهبة. ط الثانية ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

* خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشيخ سيد قطب ط دار الشروق ط العاشرة ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

* العبادة في الإسلام د يوسف القرضاوى ط مكتبة وهبة الطبعة ١٥عام ١٩٨٥م.
* الحلال والحرام في الإسلام د يوسف القرضاوي ط مكتبة وهبة.
* المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية د عبد الكريم زيدان صـ٣٩ وما بعدها ط بغداد ١٩٨١.

سادسا: كتب متنوِّعة:
* دراسات أصولية د محمد إبراهيم الحفناوى ط بدون.
* حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ عباس العقاد ط بيروت.
* الله للأستاذ عباس العقاد ط: بيروت.
* الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة, للزركشي ط مكتبة الخانجى.
* قصص القرآن للشيخ محمد أحمد جاد الموالى, والشيخ على محمد البجاوى ط الفتح.
* السيرة النبوية لابن هشام ط دار الحديث القاهرة.
* وحي القلم للأستاذ مصطفى صادق الرافعي تحقيق أيمن محمد عرفة ط المكتبة التوفيقية.
* دراسات في النقد الأدبي د محمد كامل جمعة ط: مكتبة ابن خلدون.بدون.
* المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ط دار المعرفة.
*إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ط دار الفكر.
* جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ط دار الدعوة الإسلامية.
* السلوك الاجتماعي فى الإسلام للشيخ حسن أيوب ط دار البحوث العلمية بالكويت.